UNIVERSAL
LIBRARY
OU_190878
UNIVERSAL
LIBRARY

الأدباء الخمسة

الاستاذ محمود عباس العقاد
» محمد افندى كرد على
» مصطفى صادق الرافعى
المرحوم ولي الدين بك يكن
المرحوم قاسم بك أمين

﴿ جمعه ﴾

اسماعيل عبد الحميد

الناشر
حسنين حسنين
صاحب المكتبة المصرية بشارع الفجالة بمصر

حقوق الطبع محفوظة

(مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

الاستاذ محمد افندى كرد على

الكاتب الاجتماعي الكبير

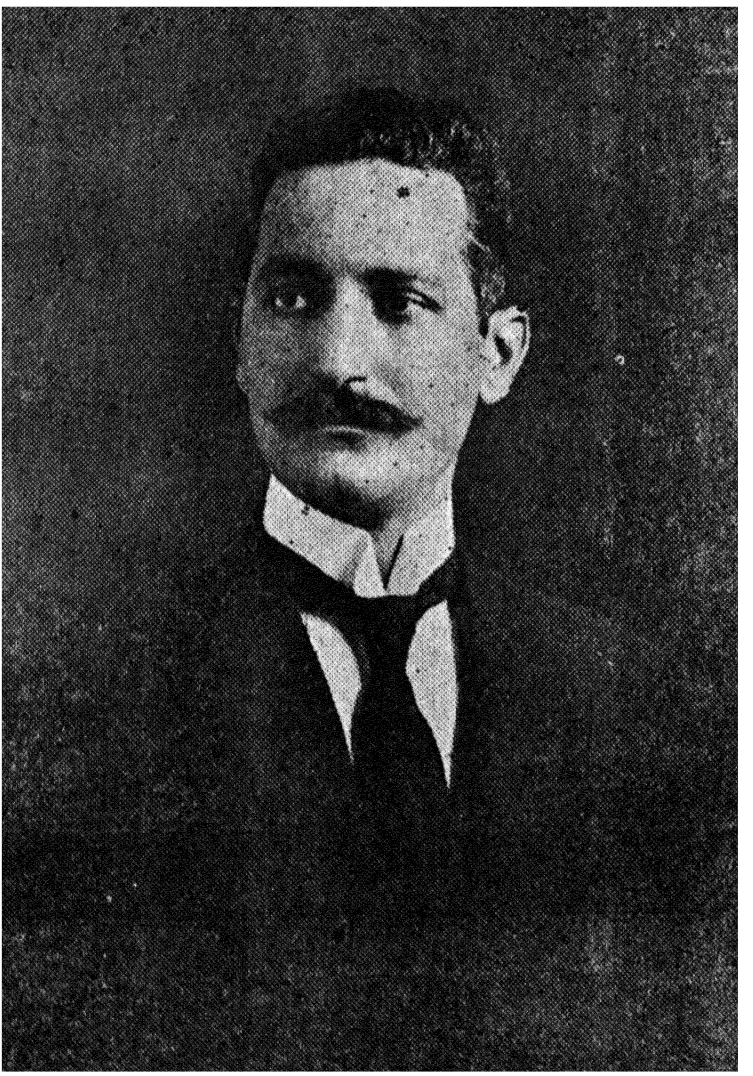

الاستاذ عباس محمود العقاد

الاستاذ مصطفى صادق الرافعى

المرحوم قاسم بك أمين

فقيد الادب والشعر

ولى الدين يكن بك

١

الاستاذ النابغة مصطفى صادق الرافعى

الحياة

للاستاذ النابغة مصطفى صادق الرافعى

لقد عرفنا الحياة ماهى لاننا نحن أمثلة عليها ولكن البحث فى فى معنى هذه الحياة لم ينته بعد لأن هذا المعنى لايزال كما كان فوق السموات ، ولو استطاع الكاتبون من أهل العلم أن يخطوا فى كتبهم بمداد من أضواء النجوم التى يسكبها الخلود كل ليلة على الارض ملء محبرة الليل لكان عمى أن تستنير مباحثهم فى ظلمات الحياة . وأنى لهم ذلك وليس وراء النفس الانسانية إلا الذى هو وراء السماء ولا وراء السماء إلا الذى هو وراء النفس

ألا فاعلم يابنى أنه مادام هؤلاء العلماء يتعاقبون على تفسير المعانى الالهية ولم ينتهوا بعد فمعنى ذلك عندنا نحن الجهلاء أنهم لم يبدؤا بعد .

وما هى الحياة ؟ أما انها ليست طريقاً مسافته كذا ولا قياسا ذرعه كذا ولا وزناً مبلغه كذا ولا شيئا من هذه المعانى التى تضرب الأقلام والالسنة فى مفاصلها بل هى فيما وراء ذلك من عال الى بعيد الى غامض الى مبهم حتى تنتهى الى منبع النور الذى تلتطم على ساحله موجة الأبد

وان أبيت الا ماهو دون ذلك وضوحا وانكشافا وبسطاً فى التأويل فقل انها فى كلمة واحدة فتح السماء بفكرة واحدة .

ولتدعنى يابنىّ من لغة هذه الكتب فانها متى انتهت الى السماء رأيتها أكثر ماتراها ألفاظاً لامعنى لها اذ ليس هناك من جلال الله الا مايشبه أن يكون معنى لاألفاظ له .

ودعنى أحدثك عن الحياة بما أفهمه أنا الرجل الطبيعى من فلق الصبح ومن روعة الشمس ومن اقبال الليل وادباره ، وبما أعرفه من هذه اللغة التى تنزل بها السماء مايتصل بنا من معانيها ، لغة القضاء حين يسأل ولغة القدر حين يجيب ، وبما استوحيه من معانى هذه الاشارات التى تتحرك بها جوارح الطبيعة وهى مزيج من لغة البقاء الأرضى الذى يريد أن ينتهى ولغة الخلود السماوى الذى يريد أن لايفنى : فالحياة ياشاعرى العزيز لاتخرج من الدواة ولا تقطر من القلم بل أنا أحسب هذا المداد الكثير الذى اراقه عليها الناس هو الذى جعلها كما يقول الناس سوداء . . . ولا يكفى ان يعلم الرجلُ كيف يسوق المقدمات وكيف يحسن القياس وكيف يخرج معنى من معنى حتى تكون النتيجة على ماتوهم والحقيقة على مايقيس والصواب كما يستخرج . وفى علم الحياة خاصة وهو العلم الذى لامادة له إلا من الحوادث — ان بناءاً من المنطق لايتخذه بيتا الا ساكن من الخيالات . . .

لست اعرف الناس قد غالوا بشىء قط مغالاتهم فى قيمة هذه الحياة . فقد والله استجمعوا لها كل مافى الرغبة من الحرص وكل مافى الخوف من الحذر وكل مافى الأمل من الترقب وكل مافى الحب من الخيال : واستجمعوا فوق ذلك المعانى التى لاقرار لها فى الارض ولا فى السماء . معانى النظرات الوهمية التى يرسلها المخلوق من ارضه الى عرش الله كأنه لايجرا ان يقف فى نهاية الحياة اذ هى تنتهى على اعين

الناس . ولان يجزم بهذه النهاية اذ هو لايريد الموت وكان الحياة لاتكفيه . . .

وما دام للحياة غد يرتقب وهو الذى يسمونه المستقبل فكل وهم يسهل على الحقيقة أن تهلكه أو تمرضه أو تضعف منه إلا تلك المغالاة الممقوتة فانها أبداً فى خصب وعافية ما بقى لها غذاء من ذلك المستقبل المحجوب.

قال الشيخ على. وأنت اذا سألت رجلا عن مسألة فسدد الجواب وأحكم الصواب قلت هذا جواب يحسن السكوت عليه. ولكنك اذ سألتنى أنا ما هى الحياة كما يفهم الناس ؟ قلت لك هذا سؤال يحسن السكوت عليه لان اللغة هى هى التى أسمتها (الحياة) واستخرجت لهذا الاسم العذب معانيه من أوهام الاحياء ، وكم فيما وراء السماء من معان تملأ الابد ولعلها لاتملأ سطراً أو سطرين فى معاجم اللغة . ولكن دع هذا وسلنى ما هو الزمن الذى يقضيه الانسان من يوم يولد فلا يقدر أن يرفض هذه الدنيا الى يوم يموت فلا تستطيع هذه الدنيا الا أن ترفض . وما هو هذا المهد الذى يكبر شيئا فشيئا حتى يصير فى الآخر قبراً. وما هو هذا العمر الذى يمتلئ قليلا قليلا حتى ينتهى الى الفراغ فيغيب فيه وما هى هذه الحوادث التى تزلزل الناس(١) فى طريق القدر حتى يخروا على وجوههم فتتحول أجسامهم فى الارض الى تراب فى طريق المنفعة ويتحول تاريخهم ترابا على طريق الموعظة؟

سلنى كذلك يابنى أجبك . هذا الفناء المحتوم وهذا الشقاء المقضى

---

(١) تسوقهم بعنف يقال جاء بالابل يزلزلها

وهذا الأمل الباطل وهذا النصب الضائع وهذا العمل الذى لايراد لنفسه ولكن لما بعده ، كل ذلك هو الحياة . أفلا ترانا نخادع أنفسنا اذا سألنا عن الحقيقة التى يسوءنا أن نعرفها فنحرف السؤال الى جهة بعيدة لكيلا نرى الجواب الصحيح مقبلا علينا ولكن مدبرا عنا

فاعسى أن تكون هذه الآمال وهذه المنافسات وهذا النزاع وهذا الصراع وهذه الأفراح وهذه الأتراح وكل ما الى ذلك مما هو من مدلول الحياة — إلا اباطلا نستمتع به قليلا ثم يظهر أنه متاع الغرور ؟

ما عسى أن تكون الحياة بكل ما فيها إلا مدة محدودة على ظهر الارض نجعلها أوهام الانسان ومطامعه وحماقته وجهله وكبرياؤه كأنها الأبد كله فيكد ويكيد ويعمل ويدخر ويهنأ ويحزن ويطمع ويحرص على نسبة من ذلك لامن نفسه أى نسبة أبدية لا انسانية . ألا انما مثل هذا الانسان المغرور مثل رجل جمع الله عليه المصيبتين فى باصرته وبصيرته فضل فى مكان فهو يقبل ويدبر فى دائرة من فضاء الارض لايهتدى الى الوجه ولا يذهب على السمت فيتوهم أن الطريق لاينتهى وأنه وقع فى صحراء لم تدرسها عكارته . . . وليست من علم رجليه فى جغرافية هذه « المسكونة » . . . وكما لاتكون الطرق عند هذا الأعمى إلا من علم رجليه فأكثر طرق الحياة عند هؤلاء المغفلين الذين يطمس الله على بصائرهم هى من علم بطونهم وما أدراك ما علم بطونهم . . . ومارأت الحكماء أحداً قط جهل حقيقة معنى الحياة إلا وجدوا هذه الحقيقة فى بطنه . . ، ولذلك قالوا : من كانت همته مايدخل جوفه كانت قيمته ما يخرج منه . . . وانما البطن جوع فشبع وشبع فجوع ، وعلى هذا القياس لاتكون حياة هؤلاء الا جوعاً فى الشهوات والآمال لايطفئه

الامايسمره ولا يجاب الراحة فيه الا مالابد أن يرجع التعب به . جوع فى الشهوات والآمال بالعقل لا بالبطن لان علم الحياة عندهم علم بالبطن لا بالعقل وكلاهما مثلة بهذا الانسان . وياالله كيف يريدالانسان أن يحيا كما يحب ثم يحب مالايتفق مع سنن الحياة ؟

من أجل ذلك شقى أكثر الناس بالعقل اذ يقلبون به الامور ويحتالون منه الحيل ويكرهونه أن يعمل على السخرة فى لذة الجسم ويحضرونه من هم الشهوات الحيوانية مالا قبل لهذا الروح الالهى أن يستكلب فيه (١) واذ يخضعونه بدلا من أن يخضعوا له ويسيرون به بدلا من أن يسير بهم . فكان من ذلك طغيان الحواس وطمسها على الروح وتعفيتها على آثارها الانسانية ولاجرم كان من وراء ذلك طغيان هذه الفوضى المترامية فى الاجتماع وانبثاقها بالشر من كل ناحية . وتداخلت حدود المطامع بعضها فى بعض فصار الناس كالامواج لاتقوم القائمة الا من سقوط الساقطة .

وكان الناس يتعلمون كيف يسبحون فى بحر الدموع ليأمنوا الغرق فيه وليستنقذوا الغرقى منه فجدت بهم الحوادث حتى تعلموا القتال عليه وصار من لم يستطع أن ينقذ نفسه يجتهد أن يغرق غيره . . !

الانسان حيوان لولا العقل فلما أخضع لشهواته العقل صار انسانا لاحد له فى الحيوانية فهو من هذه الجهة لا انسان ولاحيوان . وان كان الشيطان مطرودا من رحمة الله فخير مايقال فى هذا الانسان أنه شيطان فيه موضع للرحمة . . .

---

(١) أى يظهر من الحدة الحيوانية كأنما أصابه الكلب وهو جنون الكلاب

ولقد خلق الله هذه الحوادث ولا ضابط لها الا العقل بحكم تحديدها ويتولى تسديدها ويستعين فى أمرها بكل على كل . ومن ثم يستقيم من هذا الانسان شيء معقول ويصبح قد ضربت عليه الحدود لا يتعداها ورسمت له دائرة فى الانسانية لا يجاوزها فيقر كل امرىء فى حيزه وقد صار عنده من الناس وعند الناس منه وثائق من العقل وبينات من الحق اذا هو حاكم اليهم ضلالة منهم أو حاكموا اليه ضلالة منه . وهنالك يرى كل عمل طيب ثواب نفسه لانه هو من فضائله كأنه شريعة لنفسه ومتى كان العمل الطيب مما يجزىء فى ثوابه عند الرجل من الناس أنه عمل طيب . فقد أصبح ولا غرو من سعادته اذ لو لم يجد به سعادة لما لقى منه ثوابا . وبذلك — بذلك وحده من دون كل الوسائل الاخرى — تصبح السعادة عملا من الاعمال يمكن أن يمارسه الانسان فيسعد ماشاء الله أن يسعد ثم تكون الحياة على ذلك واجبات يقضيها فان تحققت أو لم تتحقق فاما دخلت على نفسه بسرورها واما خرج منها بعذره وقد بلى عذرا . ومتى صارت حياة رجل من الناس الى أن تكون واجبات تنجزها ويستقضيها من نفسه فانه لشهوات البدن موضع الا كموضع النار من يدى المصطلى لا يراد منها الا حرها ولا يطلب من حرها الا قدر معلوم ولا يبتغى هذا القدر الا مدة بعينها ولا تكون هذه المدة الا بمقدار ما يصلح أو يدفع الاذى . لا سرف فى كل ذلك ولا هوان ولا مضيعة

قال الشيخ على : ولكن كل شر العالم يابنى فى لفظ واحد هو طغيان الحواس ؛ وبمعنى واحد هو اذلال العقل ، ولغرض واحد هو هذا الموت الادبى الذى يسميه المغفلون سعادة الحياة . منذ طغت الحواس أصبحت الحدود بين مطالب الانسان من فضائله الى

رذائله ولا أثرلها لأن الشاطىء لا يعرف تحت السيل ، فما أنت ولا أنا ولا أحد يدرى ما هو حد الكفاية فى رغبات هذا الانسان وأهوائه بل صارت هذه الكفاية وما ينطوى تحتها من ألفاظ القصد والقناعة والرضا وما اليها ألفاظاً خيالية يساير ظلها ظل الانسان فلاحد لها مادام هو لايثبت لنفسه حدا ولاتتأخر مادام هو يتقدم . وأصبح أكثر الناس فى رغباتهم الخيالية وما يعملون لهامده الحياة كرجل ائتلى (١) أن يخط دائرة مركزها ليس فى محيطها فكلما رسم دائرة رأى المركز فى داخلها فيجعله وراء المحيط ثم يديره فاذا واحدة أخرى تقاطع الاولى ولم يصنع شيئا صحيحا مما يحاوله . ويمضى على ذلك ماشاء الله ولا يصنع شيئا فلا هو يخطىء رأيه ولاهو يرى من عمله شيئا صحيحا ومابقى من الارض فضاء لم يخط عليه بعد فهناك . هناك يرى هذا الاحمق الدائرة المتوهمة التى مركزها وراء المحيط . . .

من هذا ونحوه أصبحت السعادة وهما من الأوهام لأنها لم تعد فى إشباع العواطف وتغذية الشعور ، وليست فى موضعها الذى هو بين الضمير والعقل ولكنها فى إشباع جسد لايشبع ما دام حيا، وفى تغذية حاسة لايزيدها الغذاء إلا شرها وضراوة ، وفى موضع مجهول بين هذه الحواس لاحد له إلا كالحد بين ما يجد المعدم وما يتمنى . . فالسعادة على ذلك هى فى الاستعداد للسعادة . . . ؟ وكفى بهذا عبثا.

ولعمرى ماذا تكون الحياة بل كيف تكون ؟ أليس يعلم الانسان أنه سائر الى الموت ويعلم كذلك أنه طالب مالايموت ؟ فلا جرم كان شعوره بهذا التناقض مؤلما وكان هذا الالم هو منشأ الهموم التى

---

(١) حلف وآلى

لاتدعه لنفسه ولاتدع نفسه له ، وكانت حقيقة هذه الهموم التي يجمعها كلها هي شعور الانسان — شعوراً فطريا جرى منه مجرى العادة — بالمنازعة بين مايطلبه هو في الحياة وبين الحقيقة التي تطلبه هو من الحياة (أي الموت) . ومن ثم يضطرب كيانه العقلي فيؤثر كل شيء في نفس هذا الانسان تأثيراً أكبر من حقيقته لأن حقيقة هذا الانسان لم تعد في نفسه بل في مطامعه . . . فهو يابني كالوعاء المثقوب تصب فيه البحر ولا يزال فارغاً ، والحياة عنده دائماً هي طلب الحياة . وكفى بهذا عبثاً . ولاتحسبن أنه لايبالي بما مضى من عمره بل هو يستشعر فوق ذلك الخوف من أن يكون الذي مضى هو أكثر العمر وأطيبه ولذلك لايبرح شقيا بما يحاول اذ يحاول أن يجمع طيبات الحياة ويستحوز عليها في القليل من عمره ليستمتع بها فيما وراء ذلك كأن الحياة التي قوامها من الغذاء لاتفارق الانسان مادام هذا الغذاء في بيته وكأن الله يبيع المستقبل لمن اجتمع له من الدنيا مايتوهم أنه يقوم ثمناً للمستقبل . !

لايبرح هذا الانسان شقيا وهو أبداً من الهم والغيظ والتوقد واشتغال الامل والاضطراب في أسباب الحياة كالسكة المحماة (١) يحسب ذلك من نفسه قوة وفضلا وسعة في الحيلة ولايدري أن هذه النار المشبوبة في صدره تقطع منه أكثر مما تقطع به وانها كما تعطيه قوة المضي في هنات الحياة وهيناتها تعطي الاقدار الصلبة مثل هذه القوة عليه فلا تكاد تصدمه من أي أقطاره (٢) يتثلم ويتفحل

وهل نحسب مثل هذا يكون عداده في أهل السعادة وهو من الحرص

---

(١) نصل يحمى في النار فيكون ذلك اشد لمضائه

(٢) اى من اى جهاته في الحياة كالصحة والغنى والامن ونحوها

على الحياة يكاد يشم تراب قبره فى كل حادثة تلم به . ولا يزال يصلب على كل باب من أبواب الايام حين يفتحها الصباح وحين يغلقها الليل ويرمى بالنبل المسموم من فضوح الدنيا وشهوات النفس الدنيئة ويقتل ضميره كل يوم قتلة الكذب والغدر والاثم لأن ذلك من وسائل الحياة التى تبسط عليه الدنيا ؟

وما ظنك بسعادة أولها حب النفس وآخرها بغض الناس، ومن مقدماتها منازعة الفرد للمجموع ومن نتائجها منازعة المجموع للفرد، ومن مبدئها درس الشر علماً ومن غايتها مزاولة الخبث عملا، ولها اسم السعادة وفيها معنى الشقاء، ومن شروطها على صاحبها أنها لا تمتعه الا بما يمله ولا تتبرج له الا فيما لا يناله ولا تظهره للناس أبدا الا ليروا فيه رذيلة من الرذائل، ثم لا تكون مع ذلك فى موضعها الا كالفقر فى موضعه هذا يوازن بين نعم السماء التى تنزل على الضمير وبين هموم الارض وتلك توازن بين هموم السماء التى تنزل على الضمير وبين نعم الارض، وآخر أمرها ان لا يعرفها صاحبها الا على الضد مما يعرفها الناس فهم يسمعون لها الاصوات العالية من الامر والنهى والجاه وما إليها وهو يعلم ان هذه الاصوات لم تخرج منها الا لانها كبيرة فارغة ..؟

قال الشيخ على : وبذلك يابنى خسر الناس لذة الحياة فلا ادرى أهم بشر أم آلهة لانى أرى كل حى كأنما يريد أن يرم صدع فى الكون وأن يصلح من هذه الدنيا ونظامها ما لم يصلح له . ولماذا ؟ لان الدينار الواحد نواة ذهبية ولكن هذه النواة لا تخرج لكل انسان نخلة من الذهب . . . ولماذا أيضا ؟ ولان أكل هذه النخلة حين تؤتى أكلها لا يكون الامرا . ولكن أليس فى الارض غير المال ما يمكن ان

يستلذ وان يسمى نعمة . وأين هى تلك السوق التى تعرض فيها النعم الهيئة ويقف على جانبيها ملائكة الله يبيعون بالدرهم والدينار؟ يبيعون المريض من أولئك الاغنياء عافية والضعيف قوة والحزين مسرة والخائف أمنا والفزع اطمئناناً والهرم شباباً والمهزول جسماً ويا والميت رجعة أخرى . . .

الا فليعلم الانسان ان هذا العالم لا يصلح على غير ما هو عليه وما لا بد منه لنظام الحياة فسيأتى ان خيرا وان شرا ، فكلنا يسمى الصعاب التى تعرض له فى طريق الحياة عقبات لاننا لا نبصر ما وراءها ولا نعرف فى اى موضع تقر من نظام الحاضر او نظام المستقبل وهى لو تعلمون وسائل لما بعدها، ورب صخرة حالت فى طريقك لتلفتك الى هاوية من ورائها او لتتقى بها عدوا يدلف اليك من ورائك.

والاعرج الذى يتأبط سناده (١) ويتخذ منه رجلا تبدأ من الكتف لا يكاد يعرج بضع سنين حتى ينقيض صدره ويكتنز عضله ويتفتل ويصبح لحيما بادناً كانما جمع فى زنده حجم يده الى حجم رجله التى ابتلى بها وكان مرهفا دقيقا متهدم الصدر بارز الاضلاع خاوى العروق ممسوحا فى جملته ، ثم انت لا تراه الا ساخطا متبرما يكاد يتحطم غيظا وهو يلعن سناده وما حمل واليوم الذى حمله به ويرى كأن العرج هو الذى قطعه عن شأو المعالى وكان سباقا . . . ويظن عند نفسه ان هذا العرج قد جعله فى مشيته الممثل المضحك على مسرح الحياة.

ولا كل هذا يا رجل فهل نسيت ويحك ان السعال كان ينفضك نفضة

---

(١) وضعناها لهذه الحالة التى يعرج عليها من أصيب فى رجله لانها تسانده

الموت وأن البرد كان قد اتخذ من أضلاعك سقفاً يأوى اليه وان الامراض لم تبرح ترميك آونة بعد اخرى كأنها تلين عظامك العاسية للضجعة الاخيرة وأنك كنت لامحالة هالكا تنفث رئتيك من شفتيك . وتبصق روحك تحت رجليك وأنه لولا الداء الذى يسمى الفرج لهلكت بالداء الذى يسمى السل ؟

هذه واحدة يابنى وما من واحدة الاهى أختها وحكمة الله لاتختلف بل هى هى في كل شئ وان كنا لا نعلم وما خلق شئ عبثاً فتعالى الله الملك الحق . ولقد أعرف أن مالم يقض لى فهو مقضى لغيرى وأنه لابد أن أذهب فى هذه الحياة بقسط من مصائبها لانه جزء من نظامها يتوقف على وجودى ويتوقف وجودي عليه وهل أنا بدن يملا الارض ورأس طبق السماء فيكون الفلك عمامتى . والقضاء غمامتى . وكل خير لهامتى ؟ ان أنا يابنى من هذا الناس فى أقدار الحياة المكتوبة الا كالجندى فى العسكر نصبته الحرب آلة حية تحركها الالفاظ والاشارات فهو يندفع الى الموت ويشوى من لحمه على النار متى أرادت خطة الحرب أن تنبعث وتتحرك وانما هو بجسمه وروحه وعقله نقطة صغيرة من خطط كثيرة مثله رسمت بها فكر أمير الجيش على صفحة الميدان ، فليس للجندى أن يسأل عند الحركة لماذا . . اذ هو لايجد عندئذ من يقول له لأن . . ؟ ولكن متى أزفت الآزفة وحقت النهاية بالنصر او الهزيمة رأى العمل الذى وراءه كأنما انقلب احرفاً وكلمات يستوضح منها فكرة القائد كما رسمها .

ومن الاسئلة فى هذه الحياة مايولد حين يموت جوابه كما رأيت فهو حمق من السائل ومضيعة لانه لاجواب عليه وربما اعتده الاحمق معضلة

من المعضلات وكد ذهنه فيه وقصر همه عليه وجعل يلقى به الناس ويفتح له الاحاديث وذلك سخف لا يوجد به الجواب الصحيح ولكن يضيع فيه السائل اذا يستفيد من وسمه وعمله وحيلته ثم لا يرد عليه من كل ذلك سوى الخيبة . وهذا أعزك الله سر من أسرار ضيق الناس بالحياة وتبرمهم بأقدارها لان أكثر اعمالهم وامالهم من جنس ذلك السؤال فما اقل من ينتهز من يومه وما اكثر من يريد غداً قبل غد

ولكأني بهذا الانسان يود لو اسرع الفلك في دورته وجعل يرمي به المرامي البعيدة لينهب ما في الغيب نهبا ولينال الممكن كله وشيئا من المستحيل ايضا . . . فيحيا بعد ذلك حياة طيبة عذراء لا تلد لياليها من مواليد الغيب قليلا ولا كثيرا . : دونك آمال الناس فانظر هل تجد في هؤلاء الحمقى من يصب آماله الا في قالب يسع ضعفيها على الاقل وهو يحسب انه بتوسيعه لها يخفى جانب لاستحالة فيها ولا يدرى انه يخفى جانب الممكن المعقول ايضا . يصبها في قالب التمنى وما موضع التمنى في عالم الحس وفي هذه الحياة الارضية التي لا تزال تضرب جيلا بجيل . وتدفن قبيلا بأيدي قبيل ويهملها الانسان في الكثير وهي لا تهمله في القليل . وهل التمنى ان تكون حوادث الحياة ما اريد انا وما تريد انت وما يريد فلان الا كما يتمنى كل انسان من هؤلاء ان يكون غير نفسه وكما يتمنى الطفل حين يجيب معلمه خطأ ويعلم انه اخطأ — ان يكون الجواب حقيقة كما اخطأ

وقد يقال انه ليس في العلماء احمق ممن يكد ذهنه في ابتكار جواب غريب لمسئلة لا تقع لانسان ولا يحتاج أحد الى جوابها . فكذلك لم ار في الجهلاء احمق ممن يسأل الحياة سؤالا لا جواب عليه او لا يفهم الجواب عليه . كل ذلك حمق وكل ذلك سخف وكل ذلك عبث وباطل

ولكن ياأسفا على الناس كل ذلك أيضا من مذاهب الحياة وكل ذلك من الواقع .

فالناس من بين طامع جرىء ان نفعه الجراءة ذهب بمنفعتها الطمع وقانع ساكن ان افادته القناعة ذهب بفائدتها السكون . ومتحيل على الغيب يستجمع له والواقع قد تقذفيه . ومتبرم بحاضره يبنى على السماء والارض تهدم منه . وقليل من الناس المؤمن الوثيق . الذى يشعر بقوة الله فى كل ضيق . فان لم ينصره الله على الحياة لايخذله فيها وتراه لا يشك فيما يعرف ولا يريد ان يعرف مايشك فيه . وهو يعلم انه ليس شىء من من المصائب والنعم يمكن أن ينزل فى غير موضعه من بناء الحياة وان خيل الينا الجهل انه فى غير موضعه اذ ليس فى هندسة الله مكان مختل . وان النعمة الصحيحة ليست فى لذات الانسان الحى ولكن فى حياة هـذا الانسان اذ الحياة هى التى توجد اللذة . وان القوة التى تسمو بالحياة حتى تسخر لها الطبيعة تسخيراً انما هى قوة العقل فان وهن العقل صارت الحياة طبيعة حيوانية لالذة فيها مما اختص به الانسان دون الحيوان من روح الله بل تكون اللذة كل اللذة هى فقدان الالم أو طفاؤه ان تسعر

وتالله لو أفرغت طيبات الدنيا فى جوف هذا الحيوان الانسانى الذى وصفت لك ممن يسمونهم الاغنياء والمستمتعين وأهل الحظو الهناء مازادت فى لذته على ما يكون من افراغ حقل من البرسيم فى جوف حمار

قال الشيخ على : وكما يفقد أكثر الناس السعادة فى كثرة الاستعداد لها والاغراق فى وسائلها يجدها بعضهم فى اهمالها حين لايبحث عنها ويذهب باحثاً عن حقيقة الحياة ،

ويا عجبا للناس كأنهم ملكوا الأعمار ، وضمنوا لأنفسهم تقلب الليل والنهار ، فقلما يفكر أحدهم إلا فى زاد الدهر البعيد والحياة المتطاولة والأمد الواسع وهو لا يرتاب فى أنه لا يعيش غير عمر واحد محدود ولكنه لا يدرى أنه يحمل على نفسه من تلك الأطماع شقاء بضعة أعمار طويلة عالية السن ويسوقها بين يديه ظالمة عرجاء تطلب السعادة فى طريق لا آخرة له فهى تسير الآن بين يديها غرضاً ماينفك مائلا على بعد منها ثم تنبعث لان الطريق لا تنتهى ثم تقف عاجزة لأن الحياة قد كلت ثم تقع ومابها حركة لأنها انتهت الى الحفرة المجهولة التى تنشق تحت قدمى كل انسان فى الساعة التى هو رهن بها ولو كان طريقه فى النعم واللذات على وادى الجنة بين الشمس والقمر .

كل شىء هو ماشئت أن تتوهم ولكن الحياة هى الحياة . هى الحقيقة التى تريد أن تعرف ، والمدة التى تعمل على أن تنقضى والمعنى الذى تطير حوله الأقدار وتقع لتلفت الناس اليه . هى الحياة التى لا تتسع لأكثر من قضاء الواجبات ولا تحمل جسدها إلا ريثما تبلله واسمها الحياة ومعناها النجاح . وهى الحياة لا المال والحياة لا الشهوات والحياة لا المطامع ، وانما قيمة الحياة فيما تذهب فيه لا فيما يذهب بها ، فكل لذة لا تجد لروحك أثراً فيها فهى لذة ميتة وحقيق بك أن تحسب أن شيئاً من عقلك أو من فضيلتك قد مات فيها .

ولقد نقلوا فى اساطير الأولين عن (ميداس) أنه بلغ من فرط الغنى أن لا يلمس بيده شيئا الا استحال ذهباً فأرادت آلهة الخرافات أن لا ينخدع الناس فيه ولا يسحر على أعينهم ويسترهبهم وأن يعلموا أنه انسان وأن فرط الغنى مثله به فسخ « أبولون » أذنيه فكانتا . . أذنى

حمار . ولعل فرط الغنى يابنى لايكون فى الاعم الأغلب الامع هذه الآذان . . . وماأملحها نادرة وأبدعها اشارة وأحكمها ملحة فان كل ما فى الحمار لابد منه لتكوينه حماراً سويا الا أذنيه الطويلتين . فلو حملهما انسان كيداس رزق غنى الحيوانية فهما برهانان على أنه ليس بانسان صحيح ولم يستطع أن يكون شيئا حتى ولا حماراً من الحمير

وأى شىء هذا الغنى الذى يأكل ويتمتع ولا يرتمى من لذات الحياة الا الخضراء الناضرة وقد سلط على هلكة ماله أو سلط ماله على هلكته(١) فان ذهبت تعتبره إنسانا لم تر فيه من الانسان الا النصف الاسفل . أهو حيوان ؟ فأين عمله الطبيعى اذن فانى لا أرى هذه الحيوانات كلها الا عاملة لنظام الطبيعة لها أم هو انسان؟ فأين عمله الاجتماعي الذى يسمى منزلته اذا أصبح الناس على منازلهم وأين الحد الانسانى الذى يصله بمجد الماضى أو يدل عليه فى عمل الحاضر أو يلحقه بأمل المستقبل؟

ان الطبيعة يابنى لا تغفل خطأ ولا تنسى مذنبا ولا تصفح عن اساءة ولكنها تضرب بيد ألطف مساً من الهواء وأخف موقعا منه على حين أن صفعتها زلزلة لا يقوم لها بناء حى ، فلو ان مثل هذا الغني قد أعطى معدة حمار او أعصاب بغل اوقوة فيل اونحو ذلك لتم تمامه بالمال ووجد فى هذا المال مسد حاجته كيف مست . غير انه أعطى شره الحمار دون معدته وأعطى فى هذا الباب من البغل والفيل وغير البغل والفيل دون مايحمل ذلك وما يبعث عليه فكأنما مسخ من باطنه مسخا على حين ان طبيعته الانسانية لا تخلو عن هذه الشهوات ولا تصلح منها ولا تتطعم فيها من الحياة وقد حدثوا عن امرأة من ذوات النعمة الفاشية فى امريكا

(١) يريد أنه متلاف أو شحيح

اتخذت كلبا فوقع منها بموضع محبة شديدة فاستصفته وتحفت به وذهبت كل مذهب فى ترفيهه وفتحت عليه من دنياها العريضة فنصت له السرير، وفرشت له الحرير ، وأبدلته سماع الموسيقى من سماع الهرير، ومنعته العظم يعالجه ويقرضه، وحرمته على الجوع يقعده وينهضه، وما زالت به ترأمه وتحنو عليه فاذا هو يذوى ثم يضعف ثم يمرض ثم هلك، وكانت المرأة كأنما تقتله بالنعمة شر قتلة وتصب عليه العذاب صبا من ألوان ذلك النعيم ، فكيف بصاحبنا الغنى حين تبالغ الطبيعة فى ترفيهه على ما يشاء له الهوى من سنة الحمار والبغل والفيل كما بالغت صاحبة الكلب فى ترفيهه على سنة الانسان

قال الشيخ على : الحياة بابنى مدة والمدة ضائعة لولا العمل والعمل على مقدار المنفعة والمنفعة بآثارها وهذه الآثار هى تاريخ الحياة . فالاحمق الشره الذى يعيش مقبورا فى بطنه والغنى اللئيم الذى يعيش مقبورا فى خزانته والفاسق الماهر الذى يعيش مقبورا فى رذائله ومخازيه والدنىء السفلة الذى يعيش مقبورا فى جرائمه وآثامه، كل أولئك لا تاريخ لحياتهم ولا حياة لتاريخهم فهم أناس خلقوا بخصائصهم لتمثيل ألوان العذاب وأصناف العقاب ، يقع ذلك عليهم من الله ثم يقع منهم على الناس وانما يعان المخذول منهم على احتمال أمره بما هو فيه من الغرور ومايطوع له ، وما كان الغرور وصاحبه فى عاقبة الحياة ورجع الامر إلا كرجلين من الحمق ضمهما طريق فاصطحبا ثم أفضى بهما السير الى جبل قطع عليهما ، فقال أحدهما لصاحبه انى أراك شديد الاسر قوى البضعة وما أرى الا أن تحمل هذا الجبل وتلقيه بعيداً من هنا فلا مذهب لنا الا من ورائه . . . قال له صاحبه انى كما وصفت وان بى لقدرة على

حمله فما عليك أنت إلا... أن تضعه على ظهرى . . ! فلا الحامل أطاق فحمل ولا المعين استطاع فأعان وانما هما كحمارى العبادى الذى قيل له أى حماريك شر فقال هذا ثم هذا. . .

وهكذا يعين الغرور على طلب الدنيا ويزين للمغرور فلا تراه أبدا الا على زينة من أمره (١) حتى تذهب الحياة فى باطل كالحق أو حق كالباطل ، فاذا حسم عنه الموت مادة الغرور وجاءه باليقين الذى لا مرية فيه قال ويحى لو رجعت لعلى أعمل صالحا فيما تركت؟ وآه لو عرفت حقيقة الحياة قبل الموت أو عرفت حقيقة الموت وأنا بعد فى الحياة !

أيها المغرور : ما أراك الا دائبا فى طلب الحياة حتى تفقدها من شدة الطلب فلا تكاد تستوضح ماهى ، فاياك واياها لا تأخذ معنى الحياة من نفسك ان لنفسك أغراضا حية تريد أن تكون هي الحياة ، ولا من الناس أن فيهم أغراض نفسك، ولا من مدة عمرك فانها لا تبلغ طرفة واحدة من عين التاريخ . ولكن أعد نظرك على ماوراءك وخذ معنى الحياة من ستة الاف سنة عرفت من تاريخ الحياة نفسها ثم من عمر الارض كله ثم من تاريخ الموت المجهول أوله وآخره ، خذ معنى الحياة من هذه الافواه الصامتة التى لا تكذب لانها تحفظ الحقيقة الانسانية ، من هذه القبور التى تملأ الرحب ؟ من هذه الهاوية التى ينصب فيها فراغ الحياة دائما لان تحتها مجرى التيار المتدفع من النهاية الارضية المعروفة الى الابد الذى لا تعرف له نهاية . خذها من هذه الكلمة التى وضعتها السماء للارض ، ، هذه الكلمة الازلية التى تحقق الاخاء والمساواة فى الناس جميعا بلا شذوذ ولا تأويل، الكلمة التى

---

(١) أى فرحا بما لديه

يكون القبر زاوية فى معناها كلمة الله عز وجل فى قوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ».

أيها المغرور خذ الحياة حقيقة لا وهما وعملا لا علما واسمع للحياة ان كنت تعرف لغتها أو اسمع للموت الذى يعرف كل انسان لغته فان كل ذلك يعلمك أن الرجل الحر لا يعرف فى أى حالة يعيش الا اذا قرر لنفسه على أى حالة يموت ، وأن الحياة ليست فى الوجه التى توجد عليه من الغنى الى الفقر ولكن فى الوجه الذى تنتهى عليه من العمل الصالح الى العمل السيء ، وليست فى ترفيهه الحواس الغليظه ولكن فى النفس والضمير : الضمير النقى لثواب الدنيا وجمال الحياة ولذة الخير ، والنفس الطاهرة لثواب الآخرة ونضرة الخلود ورحمة الله

قال الشيخ على : فلا تسأل يابنى ماهي الحياة ولكن سل هؤلاء الاحياء أيكم الحى ..؟

وقال من فصل يصف به فتاة منكودة الحظ تزوجت برجل كهل مثرى

فى الحب

من هذه الهيفاء التى تستميل ولا تميل . وقد استبدت بالجمال فلا يرى فى غيرها شيء جميل ، طالعة كالشمس فكل نجمة من ضوئها كاسفة لاهية كالنسيم وفى كل قلب من حبها عاصفة . وقد عبدها العشاق باطلا كما يعبد المجوس الشمس . وتمنوا فى دلالها المحال كما يتمنى المرء من أمس . وكتب عليهم هواها المحتوم . (جند ماهنالك مهزوم) .

وكم تمنوا لو أن لين أعطافها . يتمدى الى انعطافها . ولو أن بعض ابتسامها . يشرق على ظلمات اليأس من غرامها . وهى تقتل منهم برضاها وغضبها على السواء . كأن حبها الموت متى قضى جاء به الداء وجاء به الدواء ؟

﴿ فى الحفلات ﴾

ومن هذه الطالعة فى غلائلها . المعروفة فى الحسن بدلائلها . المشرقة كالبدر فى ظلمة الحلك . الضاحية كالشمس فى قبة الفلك . تعترف بالهوى فى ألحاظها وتنكره فى ألفاظها . وتقبل بعينها سائلة . وتلتفت بجيدها مائلة . وقد حسرت عن زنديها . ووضعت رمزا للحب تلك الوردة على نهديها فلاحت للمحبين كأنها قبل قطفن من خديها ؟

﴿ فى الرقص ﴾

ومن هذه الزهراء كالنار المشبوبة . الحسناء كالدمية (١) المنصوبة . المشرقة فى زينتها كغرة الدينار . اللائحة فى ميناء الدموع كما يلوح المنار . وقد شف قلبها عن الجوى كما يشف الزجاج . وتدافعت من طرب الهوى كما تتدافع الامواج . وهى ترقص حركات القلوب فى الضلوع . وتسترسل كما تسترسل تلك الدموع . والابصار قائمة على قوامها . والنفوس حائمة منها على حمامها . وماهى عين المحب الاخطرات الطيف . أو رقة نسمات الصيف . ولا رقصها الا معركة فى الحب قام فيها اللحظ مقام السيف ؟

﴿ فى الموسيقى ﴾

ومن هذه الباسمة كالازهار . الساجعة كالاطيار . التاركة عشاقها كالشمس بين طرفى الليل والنهار . القائمة كالكأس فى اليد الناعمة كالحمرة فى الخد . وهى تحمى بالصوت لانه يخرج من صدرها . وتسكر باللحظ لانه يمر من ثغرها ويكاد يخلق من نغماتها القلب المفتون . ومن حركات انامله العقل المجنون . اذا صدحت فحمامه واذا رقصت

---

(١) التمثال الجميل .

فغمامه ، واذا أرسلت من يدها (صيحة) الاوتار أقامت للطرب (القيامة)

تلك هي درة الصدفة المطروحة على ساحل الموت . وهي حمامة ذلك القفص البالي المصنوع من العظام . وهي خطيبة الكونت فيكتور .

وتلك هي (لويز) القروية الساذجة كانت نبتة في الطين . فأصبحت زهرة في وعاء ثمين . ولان تكون نبتة مهملة وتنمو خير من أن تكون زهرة مرعية وتجف .

ولقد رأى الكونت أخزاه الله أن أحسن مايكون الاستمتاع بالجمال حين يكون الجمال فناً وفتنة . فأما الفتنة ففي عيني لويز وجمال تكوينها . وأما الفن فلا سبيل اليه من هناك ولا من فلسفته وليس الا ان يبسط يده كل البسط حتى تنبت له تلك الزهرة من أغصان الذهب والجوهر . فأنفق واتسع في الانفاق وجعل آمال شيخوخته كلها مقترحات في زينة الفتاة . فبرعت البراعة كلها في الرقص والموسيقى وأحسنت في الفن النسائي في أساليب الظرف والجمال والزخرف ماترك هذا الهرم المتصابي يفاخر الناس كافة بأنها خارجة من قريحته .

وأعجب مافي أمره أنه على كثير ما أنفق وطائل مابذل لم يكن يرى أنه أنفق على لويز مالا بد منه لمثل لويز . . وهو منذ أصبحت في كنفه استبدل الحرص على المال بالحرص على الحياة وعرف أنه لابد في الحب من وسيلة وان قلب المرأة ليس في يد أحد ولا في يد المرأة نفسها بل هو يحتكم فيما يختار ويختار على مايحتكم ، وأنه ليس أشد عنفاً من هذا القلب فهو ان لم يحي قتل ، يحب المرأة عاشق غير محبوب ويريد مراغمتها على حبه فيقتله قلبها لوعة وضني بما يطوع لها من صده أو بغضه ، وتحب المرأة ثم يمنعها قومها ويرغمونها على غير من تحب فلا يقتلها الا قلبها .

وان (فكتور) ليعرف أنه فارغ الخلقة . . . من وسائل الحب كلها ويعرف أنه فى أحمض أنواع الهوى . . لا يعدل أكثر مما تعدل قشرة الليمونة المعتصرة فكيف به فى الثمر الحلو وكيف به فى حب لويز؟ لم يبق إذن الا أن « يخرج الوسيلة من يده » والمال أضعف الوسائل فى الحب الصحيح وأن كان أقواها فى الحب المكذوب على أنه لا يجعله قويا من ضعف الا أن يظل يمد بعضه بعضاً فاذا أنفضت اليد أو أمسكت فلان يقبض المحب على الريح أيسر من أن يضع يده على ظبية شاردة ... ومن أجل ذلك توسع الكونت فى البذل حتى كأنه كيس مخروق ، ولم يعرف لها طلباً الا بلغ فيه رضاها وحسب أن في رضاها محبتها فكان يأتى بالحاجة التى تطلبها والحاجة التى لم تطلبها « وأبى أذ تعبد لها الا أن يكون عبداً بشهود وأدلة »

وبقيت « لويز » تتربص به الاجل فكانت له كحرف التسويف ولا تزال تدافعه عن نفسها وتروضه على الصبر وتمنية انها لستتم فنون الجمال من أجله وأن هذا القمر متى تم فسيدخل معه فى المحاق . . . لا محالة . ويظن باطلا أنه لم يبق منه إلا كما بقى من ذنب الوزغة تضرب به يميناً وشمالا ثم تموت بيد أن الموت لم يستنقذها منه وان كان يرأف بها أحيانا وتدخله الرقة عليها فيغيب عنه (الرمانزم) ليريحها بضعة أيام . . .

وكان الرجل يخشى غضبها ويطمع فى رضاها فكان يستعين ببعضه على بعضه ويعلم أنها ترى الصبر أحسن مافيه فيترك أقبح مافيه جانباً ويصبر . فلما استوت فتنتها ولم يبق من باطلها ماتتعلل به أو تتعلق به علة ورآها قد أخذت زخرفها وازينت واهتزت وربت . صار منها كحرف الجر لا يريد الا ان يكون الجار والمجرور (متعلقين) . وفرغ

صبره واستيقن أن له آخرة وأن صاحبته لاتزال فى أول دلالها . وكانت تحسب الدهر نائما عنها فاذا عينه قد انتبهت فى أجفان هـذا الشيخ فنظر اليها نظرة لاصواب فيها .

وباغتها الرجل فخيرها بين أمرين خيرهما شر : اما طريق الى صدره . واما طريقة من غدره . ومع الاولى الوصيـة بالمال . ومع الاخرى أن تذهب فى الحال .

وكذلك غلبها على أمرها وانتصر فى معركة كان لابد أن يخرفيها أحدهما صريعا وقد اسـتحال أن يكون المغلوب غيرها . وان عثره تنتهض منها بعد حين خير من عثرة لاتستقبلها . ورأت الظبية أن لامناص . فوقعت فى يد القناص .

﴿ ياليل ﴾

الليـل منسدل كانه حجاب مضروب بين الحياة والاحياء . مجتمع الظلمة كأنما هى ذنوب الناس فى نهارهم جعلت الملائكة ترسلها الى السماء وتغشى الارض معنى من خشية الله فنفرت له دموع المساكين . وأقبلت عليه أنفاس المحزونين . وبرزت له فى أثار الظلم دعوات المظلومين . وقد ارتفع الى الله صوت يتقطع زفرات . ويتلهب حسرات ويسيل من الدمع قطرات . وكان صوت (لويز) وهى تزفر الزفرة تكاد تنشق لها وترسل الانة تكاد تدفن فيها وما بها الغيظ فتسكته عنها ولا بها الحزن فتمسحه بدمعها ولا بها الهم ولا بها الغضب ولا أمر مما يتواصف أهل البلاء ويبثونه فى أحزانهم وانما ذلك شىء ان يكن من الحياة فليس بالحياه وان يكن من الموت فليس بالموت ولعله منازعة الحياة والموت على قلبها

مابك ياالويز وقد بت زوج الـكونت الغنى وهو عما قليل آخذ ما أمامه

وتارك ماوراءه ، ومابك أيتها المسكينة وقد كنت فقيرة بائسة لاتملكين قوت يوم فقبضت على اعناق سبعين سنة تجمع المال وتكنزه ، وما بك عمرك الله وقدخرجت من الكوخ الى القصر وصعدت من العريش الى العرش وان كانت حواء قد طردت من الجنة فقد طردت أنت الى الجنة وفى الجنة قوم يقادون اليها بالسلاسل ..؟

قالت امرأة وهى تناجى ربها . إلهى ماذا قضيت على .لقدوضعت الدنيا على راحتى وكان مملكة امالى مرسومة فى كفى ، ولكن أى فرق بينى وبين تمثال من الذهب الخالص فى منزل هذا الرجل . لقد رددتنى من فقرى وذلتى الى رجل رددته أسفل سافلين فايرينى الدنيا التى أعرف أنها الدنيا ولكنه يرينى الاخرة .

ياويلتا إن لم يخجل الرجل من شيء أفلايخجل من أنه لايخجل أبى هذا الموت لشقائى الا أن يتخذنى زوجته وكنت خليقة أن أجعله أسعد رجل فى الدنيا لو اتخذنى ابنته . اللهم انك رزقتنى العافية فى كل جوارحي ولم تصبنى الا فى القلب .

ياويلتا ما أنا الا لعبة فى يد هذا الطفل لايلذه شيء أكثر من تحطيمها فى طرق لذته ، وقد خلقت يارب من يحطم القلوب الصحيحة ولم تخلق من يستطيع أن يجبر القلوب المكسورة وأنه ليس فيما برأت وذرأت مخلوق أشد تعبا ممن يفتش فى قلبه عما ليس فى قلبه وهل فى الممكنات أو فى أشباه الممكنات أن أجد فى ناحية من قلبي حب هذا الزوج

لقد عرف الناس أن قلب المرأة كثير العبث وهذا الذى يسمونه دلالا ويحبونه فى الحب انما هو شيء من عبثه ، وان هذا القلب انما خلق ليحب ولذلك أعطى قوة يخلق بها الحب من العدم . غير أنهم جهلوا فيما

يجهلون من أسرار المرأة أن ذلك القلب انما جاءه العبث بالرجال من أنه لا يطيق أن يعبث به أحد من الرجال ، ومتى وجد من هؤلاء من يريده بنا درته ويجعله من هزله معرض السخرية وموضع العبث لم يكن في الدنيا أحد ابغض الى المرأة منه وان كان الدنيا كلها في طلعته وان كان مخلوقا من رونق الشمس .

اليس النساء يحبين حتى الكلاب ويرفهنها ويغالين بها وينزلنها منزلة الولد في الحب والانعطاف والتوجع والتحزن . فسبحانك اللهم ان هذا القلب الذي يسع حب الكلب يضيق عن حب كثير من الرجال اذ يحبون المرأة حبا ليس فيه شيء من روحها — حب الزينة او الاستمتاع او الخدمة — فكانهم بذلك يبغضونها بغضا فيه كل روحها .

يا ويلتا اعجزت ان اجد في هذه الماجلة نفسا ارى فيها نفسي وهل حرمت على كلمة الحب فلا يفيض بها صدري ولا ينطق بها لساني ، وهل خلقت لؤلؤة لا كون في عقد من الحصى ووسمني الله بهذا الجمال ليعذبني بهذا القبح ، وماعسى أن ترد على هذه النعمة مادمت لا أجد لها سبيلا الى قلبي وما دام هذا القلب لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ..

ضل ضلالكم أيها الناس اذ تحسبون النعمة حق النعمة في الغنى وحدة وتمضون الامر على ما تخيلتم من ذلك ولا تدرون أن الله ينتقم بالغنى أشد مما ينتقم بالفقر . فلو أني ابتليت بالمصيبة وأنا امرأة خاملة لاحتملتها وقنت خمول عرفته فما يبلغ بي ولا يزيدني بنفسي ولا بنفسه معرفة ومن رحمة الله بالفقراء الخاملين أن في كل بلاء يعتريهم مايعنيهم على حمل بلاء أشد منه ، ولكن الضربة اليوم لا تصدع الصدفة بل تستحق اللؤلؤة فاللهم لاقوه الا بك .

وما أشبهني اذ قتل هواى هذا الكونت بزنجي من زنوج أمريكا اغتال سيد من البيض فلم يجدوا له عذابا الا ان يشدوا قتيله فى وثاقه وتركوه يبلى تحت عينيه ويسيل جوفه تحت أنفه ويتناثر لحمه على صدره وهكذا يقتله القتيل وحده بالرعب والجنون قتلة لاوصف لها فى الحياة ولقد كنت بائسة يطير بها القضاء . ويقع فلا تزال دهرها حتى جناح مخفوض من رحمة الله أو فوق جناح مفشور من الامل فى رحمته. فلما وجدت الغنى واستشرفت للسعادة شغلنى الله بهم نفسى فشغلتنى نفسى عن النعمة فلا تزيدنى النعمة الا هما ، وقد كتب الله على أن يقتلنى بغض هذا الرجل فوهبنى الغنى من يده وحسب الناس أن ذلك لكيما أستمتع به وعلم الله أن ذلك لكيما أتصل بقاتلى . فاللهم قد أحيط بى وليس ورائى منفسح فمن حيثما التفت لا أرى غير ما قضيت على أن أرى ، وهذا امتحان أينما أتوجه فى الحياة لاتقابلنى الحياة الا بمسئلة من مسائله المعضلة .

إن كلمات القضاء لاتقرأ لانه لاينزل بالناس الا معانيها ، على أن الكلمة الازلية التى يكون معناها هذا الزواج وهذا الزوج لابد أن تكون جملة كاملة من غضب الله فى السماء لايقابلها الاسيرة كاملة من ازدراء الناس فى الارض .

قال الشيخ على . ونفرت دموع هذه المرأة تخفف من يأسها وانه ليأس أكبر مما تحتمل نفسها من الصبر لو أنه من وجه ذلك الزوج وحده فكيف به ومع ذلك الوجه شبابها الهالك وآمالها الضائعة وغصة من شماتة الناس وأزدرائهم وبلاء من نعمة سابغة ستنقلب فضيحة وسخرية

واهاً لك أيتها المسكينة . إن مصيبة الاغنياء لتكشف نفسها فهم يحملونها ويحملون أراء الناس فيها ، وأن المصيبة لتكون واحدة

ولـكنها ترتد اليهم من قلوب الشامتين من أعدائهم والمتربصين من حسادهم والمتوجعين من سائر الناس وكانها مصائب كثيرة .

والمرء لايأخذ من الله بشرط ولا يعطيه الله على شرط . فان كان فى الغنى تلك النعمة فهي الغنى هذا الهم وما رأيت أيسر اضطرابا من الماء الراكد قذف بحجر الا الغنى الغافل قذف بمصيبة .

ويحكم أيها الاغنياء متى رأيتم ثمرة لاتسقط أبدا من غصنها الاخضر وثمرة تسقط من الغصن ثم ترد اليه فتعلق به وتنضج عليه فاعلموا يومئذ أن غناكم هذا نعيم لارزيئة فيه ولا مصيبة لان هذا الـكون حينئذ يكون فوضى لانظام له ولا قرار .

وانصدع الفجر وأقبلت الحياة تتنفس من مباسم الازهار وتتغنى بألسن الاطيار ؛ والفتاة موجسة أن ترى طلعة شيخها كان هذه الطلعه صبـح غير الصبـح . وودت لو وقف الزمن فان لم يمكن فوقوف الارض فان لم يمكن فوقوف قلب هذا الشيـخ وخيل اليها أنها ستقرف باثم منكر اذا هو بادرها قبلة الصباح على مثل شفق الشمس من خديها . وأنها لا ترمى بمسبة أوجع ولا أمض من قوله حبيبتى وانسلخ الليل وطارت الاحلام وأفصحت الحقيقة واستيقظ الـكونت .

(على المـائدة)

زهرات ناضرة كانما اختبأت فيها ابتسامة الفجر عاطرة كانهارسالة اللقاء بعد الهجر . بديعة التنميق تحسبها قصيدة من شـعر الالوان . متفتحة للحب وكانها لـكتاب الحب عنوان . متلائمه مصففة . متلائمة كالشفة على الشفة قائمة فى جلالها وحسنها . كانها فى خلقة الجمال أية . وكل زهرة فى لونها كانها دوله من دول الحسن رايه . وقد جلست اليها .

غادة فتانة كانها فى رقتها روح النسيم وفى نضرة شبابها روح الحديقة ولاحت الازهار كانما هى خيالات جمالها وظهرت الغادة كانها هى الحقيقة

تلك هى « لويز » فى صبيحة عرسها على المائدة وقد أثبتت فى كل زهرة لحظاً من لحاظها ولا يشك من رآها فى تلك الحال وهى ترتقب ظهور زوجها أنها تنفس على هذه الأزهار شبابها ونضرتها وحسن ملاءمتها وتحسدها على أن ليس فيها أعواد من الحطب. . . تفسد نظامها وتنكر بهجتها وتغض من حسنها كما ابتليت هى بزوج من عود . . . وإنها لكذلك اذا خفق أقدام وضوضاء وموكب وشىء كالموسيقى فما لفتت جيدها حتى أبصرت الكونت داخلا يتوكأ على خادمين وله نغم مختلف . . . وآهات وأنات ، ومع هذا النغم سعال كقرع الطبل وكان (الروماتزم) قد دب دبيبه فى مفاصله تلك الليلة وبات يفتل فى عروقه وأعصابه ، ووعكته الحمى واجتمعت اليه علل الشيخوخة كلها تهنئه بالزفاف . . . غير أنه لم ينس مع هذا البلاء كله أن عروسه يرتقبه على المائدة ، فحفزه الشوق وعاوده الصبى فطار اليها بجناحين من خادميه

ولما بلغ ظلها أفلت الخادمين ثم ارتمى عليها يقبلها رياءً ومصانعة ثم تمسك بها يستند اليها ثم انحط الى يمينها ، وما كادت تناوله قدح اللبن يرتضعه . . . حتى غمره الألم وهاج داؤه ففتح فاه وصدحت الموسيقى بنغم مختلف من آهات وأنات ومع هذا النغم سعال كقرع الطبل

ورأت « لويز » ذلك فرقصت أحشاؤها . . ! فلم تملك المسكينة أن اقتلعت جسمها من الكرسي وانكفأت هاربة الى حجرتها وانطرحت فى غمرة أخرى من الألم ، وبقيت هناك ملقاة يداربها وكانت لم تغتمض فى ليلها فاصطلح على جسمها هم الليل والنهار

(الحرب)

رقعة من الارض كان فيها شيئاً من الطينة التى خلق منها الانسان فهى تمطر من دمائه . وكانما عرفته فى سماء الله فلا يكاد ينزل بها الجيشان حتى تعيد ارواح أكثرهم الى سمائه ، ينجذب اليها الجندى لان فيها ترابه بل لان فيه من ترابها . وينطرح عليها لان اقتراب منيته فى اقترابها ولا تزال تصرعه وكانها من شوقها تضمه . وتلقيه على صدرها ميتاً أوجريحا كانها تعلمه بذلك أن الارض امه . وهى مزرعة الموت نباتها الرؤوس . فمنها قائم وحصيد . وثمراتها النفوس . فمنها دانى القطاف ومنها بعيد وقد رواها بالدم الحى فنبت فيها العظم وأثمر فيها الحديد

بل هى ساحة الحرب ترفع عليها هى القوة راية وتنزل راية . ويحشر الى مسرحها الناس ليمثل لهم الموت كل يوم رواية . وقد اضطربت فيها الآجال فكانها أمواج فى بحر القدر زاخره . وتناثر فيها الرجال فكانهم عظام فى بعض المقابر ناخره . وظهرت تلك الساعة وقد كشرت عن أنياب من السيوف واسنان من الاسنه كانها لاهل الدنيا فم الآخرة.

أما الجنود فاذا رأيتهم يلتحمون قلت زلازل الارض قد خلقت على ظهرها واذا شهدتهم يقتحمون خلت نفوس الكرام قد حملت على دهرها . وقد أيقنوا أنهم ان لم يكونوا للموت كانوا للاسر ، ومن لم يبين منهم على « الفتح » بنى على « الكسر » وما منهم الا من يحمل رأسا كانه لايملكه ، على عنق يدرى كيف يمسكه ، فى بدن لايعرف أيأخذه الموت أم يتركه ، فهو لايبالى اظلته الشمس. أم أظلم عليه الرمس ونهض للتاريخ مع الغد أم ذهب فى التاريخ مع الامس ، واذا كان من

صفة الميت أنه اسم فى الحياة بغير جسم فمن صفة هذا الحى انه جسم يعيش بغير اسم ، وما الجندى الاعدد فى حساب الحرب ، فسيان قطعه « الطرح » ام اخذه « الضرب » ، وانما هو حيث يتهيأ له انتظار الاقدار فليس الا الصبر . ولو فى بطن القبر ، وحيث يطبخ له النصر على « النار » . فثم المكان ، ولو فى جوف البركان ، واية عقله ان يكون كالآلة المتقنة تعمل بلا عقل فلا يخشى الحيف ، ولا يسأل لماذا ولا كيف ومن ذكائه أن يكون من صحة الذهن . . . بحيث لا يفرق فى الموت بين الجمر والتمر وأن يكون من « خفة الروح » بحيث تحمله اللفظة الخفيفه على جناح الاثر .

وما الحرب الا ان يتنازع الناس عن الحياة فيقيموا الموت قاضيا ويطلبوا من الشريعة المدونة فى صفائح السيوف حكماً على الحياة ماضيا فكلا الفريقين يقدم الحجج ، من المهج ، ويتكلم بالسنة الروح . من افواه الجروح . ويأتى من بلاغة الموت فى خصامه بكل « ضرب » ويجرى الحياة مجرى « الاستعارة » فى « بيان » الحرب .

وقد تواقف الرجال فى يوم أطول من يوم العرض ، وتقاذفوا بالاجال حتى أو شكت السماء لكثرة ما ينزل منها ان تقع على الارض . فالخيل منقضة كانها صواعق ارسلها الموت فى أعنه . او نوازع من السحاب بروقها الصوارم والاسنة . مسرعة كانها تسابق تلك المنايا التى جرت بها الاقدار . جائلة كانما تحيرت كيف تفر من ساحة الموت بما حملت من الاعمار . وعلى ظهورها كل فارس كأنه بين الرماح أسد فى غاب وكأن الموت بين سيفه سم خلق فى ناب وكأن العنان فى يده سوط ولكنه سوط عذاب ويعد فى الفرسان حتى لم يعد من

الانسان . فاذا صاح بقرنه عرفت الوحوش ذلك الصوت . واذا هاجته الحرب لم يفته من ضروب النقمة فوت . واذا نظر الى مقتل عدوه حسبت عينيه نقطتين على تاء الموت .

وقد ثار الغبار كانه طريق يمد من الارض الى السماء او كانما اراد ان يمثل السحاب وقد راى المطر تمثله الدماء . او كانه ارض ثامنة بدات تتخلق فى الفضاء. او كانه لما راى الحرب تتوقد هب مستجيرا من الرمضاء او هو قد فر من الارض لما خشى ان تنفلق الارض من حوافر الخيل، أو كأنه أنف أن يأتى الناس أعمال اللصوص فى نور الشمس فضرب عليهم قبة من الليل أو حسب عقول الجند فى أيديهم وأرجلهم . . . فطار ينظر أين تلك الهام أو هو لما رأى المطر أحمر خشى على الأرض فثار ينظر ماذا دهى الغمام.

والمدافع قد رمت الارض بزلزالها ، وألقت على الجند من شر أفعالها فتركتهم كالغابة الملتفة اذا استطار فيها الحريق ، وانحط فريق من أشجارها على فريق وكأنما انقض عليهم من قبابلها جدار من الجحيم . وكأن كل مدفع فى صيحة الحرب انما هو عنق شيطان رجيم .

تحمل فى بطونها أجنة من النار تعد الحصون لهولى ميلادها. وتتحنى القلاع مخافة منها على أولادها ولها صوت بعيد كأنها تنادى به السماء لترسل المنايا الطارقة. اولتستقبل الارواح المفارقة .أو كأنه نشيد فخم تفتخر به الارض على الرعد والصاعقة وهى (القارعة وما أدراك ما القارعة) اما يومها فيوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش(١) وهو ان لم يكن يوم النفخ فى الصور فانه يوم تحصيل ما فى الصدور(٢). وان لم يكن

---

(١) العهن الصوف وهذه الكلمات اقتباس (٢) المراد هنا تحصيل الارواح

يوم يبعثر من فى مقبور فانه يوم يبعثر الناس فى القبور. وهو المدفع حسبه قوة انه من الحديد. وحسب مايحويه قول الله عز وجل (فيه بأس شديد) وحسبه رعبا انه شكل (عصرى) من عذاب الخسف القديم اعده الله لهذا الانسان الجديد. فكم من حصن منيع اعتز به اهله اعتصاما. فتركهم فيه ترابا وعظاما. وكم من قلعة شامخة اغتر الجند بقواها فدمدم عليهم بذنبهم فسواها (١)

وأما الرصاص فهو من سماء الموت حب غمامه، وله صفير كأنه ترنم الشيطان ببعض أنغامه، ولو أن عاصفة كنست أرض الجحيم لما شوت الوجوه بأشد من ناره، ولاحملت من هناك الامانحسب هذا الرصاص من حصاة وغباره، يثور كما تثور الاعاصير، ويندفع كما تندفع المقادير، ويقع على الاجسام بالأجر او يطير، ويتناثر فكأن فى السماء نجماً تفتت فسقط، أوكأن قطعة ذابت من الشمس فألقت على وجوه الناس هذه النقط، أو هو فوج (٢) من ذباب النار، هبط الى هذه الدار فلا هم له الا الجلود وانضاجها بلذعه، والعيون واخراجها بنزعه، والعروق واستخلاصها، والدماء وامتصاصها، والأرواح بعد ذلك واقتناصها، وكأنه زفرات غير أنها لا تخرج من الصدر بل تنزل فيه، ولو لا أنها تشويه ولا تشفيه، وهو أوقع فى الرؤوس من الأوهام، وأنفذ فى الأغراض من مكائد الأفهام، وأحر على الأكباد من كل مايضرم غضب الجبار المغيظ، وما هو الا العذاب الرفيع ان كان المدفع هو العذاب الغليظ

---

(١) دمدم عليهم طحنهم فأهلكهم والجملة اقتباس من قوله تعالى (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (٢) الطائفة والجماعة

٢

الاستاذ النابغة محمد افندي كرد علي

رئيس المجمع العلمي بدمشق

الهجرة

للأستاذ النابغه محمد افندى كرد على رئيس المجمع العلمى

أربعة أحوال تعمل فى تكثير سواد الامم الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات وبنقيضها تقفر البلاد وتقل الامم ومحور الهجرة يدور فى الاكثر على تحصيل القوت والفرار من ظلم خصوصا أيام كانت الجماعات فى القرون الاولى والوسطى من أكبر العوامل المهددة للشعوب وكانت تغذية الجماعات الكبرى مناطة بمحصول السنة حتى كان تأخر وصول الحبوب المشحونة فى البر والبحر يحدث مخاوف هائلة ويثير مناوشات وثورات . وكانت الفوضى والحروب تجعل المواصلات صعبة أو متعذرة ويهلك سكان المدن جوعا. وتحتكر المدن الحبوب فى أماكن خاصة وتدخرها لحين الحاجة أما سكان القرى والارياف فكانوا يقاسون الامرين ولا يجدون غير الهجرة بابا لنجاتهم بارواحهم وأرواح ذراريهم وهذا ما دعا الى اقفار كثير من الاصقاع فى الشرق والغرب لان من ولد من الاسر المهاجرة لم يواز عدد من فقدتهم البلاد بهجرتهم لها(١)

جاءت أزمان على البشر كان الشرق أو أفريقيه وآسيا أعمر من الغرب وكانت آسيا تقدم كثيراً من أبنائها ليكونوا جندا فى الجيش الرومانى ورومية كانت حاكمة على معظم أصقاع أوربا وجزء كبير جداً من آسيا وأفريقية وسلطانها فوق كل سلطان وما ملوك تلك الايام الا أقيال يخضعون

(١) كتاب الشعوب والاخلاق تأليف هنرى سكريتان

Henre -F Secretan Les population et les moeurs

لصولجان رومية وقد كنت ترى أناسا من بلاد الشام فى كل مكان كما تراهم الآن وكان منهم فى جيش جرمانيكوس القائد الرومانى عدة كتائب عند ما حمل حملته على الرين .

قال سكريتان . ان القرون الوسطي باقطاعها وما كان فيها من اللصوصية والاخلاق الوحشية وقلة المواصلات والحياة الزراعية والصناعية الاهلية وتنوع اللهجات وحكومة الجماعات Polyarckie والاستئثار من الحياة والتشتت السياسى الذى هو من خصائص تلك القرون كل ذلك مما يتمثل لعيني بقلة الرجال وطول اقفار البلاد فاقفر العالم الرمانى وظل الشعب زمناً على نسق واحد ثم زاد بانشاء المدن وتوطيد دعائم المركزية السياسية التى تسهلت أسبابها بنمو الموارد الاقتصادية والايدى العاملة التى أنشأتها ومن المدن تنبعث أبداً حركة تنظيم القوة العامة . فصاحت الاملاك يعيش بما تدر عليه املاكه على حين تضطر المدن أن تطلب ذلك من التجارة وأن تضمن حقوقها فى البلاد القاصية بتأمين السبل والتجارة .

قال وما المصانع العظمى التى قامت فى القرن الثالث عشر له بلادوما تلك البيع والمعابد الا أثر من آثار زيادة السكان فى أوربا وان الناس أصبحوا يهتمون لامور أخرى غير حفظ حياتهم مباشرة . السكان من العوامل الضرورية فى التبدلات السياسية . وعندنا ان الشعب هو ارض التاريخ الذى تنبت فيه الاوضاع والافكار . ولما نمت النفوس منذ القرن الحادى عشر فى حمى أسوار المدن والمقاطعات المنظمة ظهرت قوة جديدة أمام الاقطاعات وانتهى التماسك السامى بقيام المدنية الحديثة وأدى نمو السكان نمواً عاماً بقاعدة الانتخاب الطبيعى أى الافضل والاحسن الى شكل جديد فى الحياة وتحسين الاخلاق وتدميثها وكثرة

السكان شرط فى قيام المدنيات العليا وفى تأسيس الاملاك العظمى وهى التى تزيد حياة البشر حركة وغنى وبهجة.

نعم كثرة السكان شرط فى الحضارة ولكنها اذا بلغت درجة تؤدى الى قلة سريعة فى المواليد ربما كان فيها الخطر على المدنية . والمدنيات لاتقوم الا فى بعض أدوار التاريخ على ان الرفاهية العامة والامن اللذين هما من أهم العوامل فى المدنيات الكبرى قد يكون منها قلة عدد المواليد وهذه القاعدة تجرى في كل مكان اليوم فى المانيا وايطاليا وانجلترا وقد كانت فرنسا أول من وصلت الى هذا المعدل فتعدلت وفياتها مع ولاداتها مع أن فرنسا كان عدد سكانها فى أواسط القرن الثامن عشر عشرين مليوناً وانجلترا ثمانية ملايين واسبانيا ثمانية وايطاليا عشرة والمانيا كلها مع النمسا وتوابعها اثنين وعشرين مليوناً وروسيا فى أوربا اثنى عشر مليونا وقد زادت كلها على كثرة من هاجر منها الى أميركا فى القرون الثلاثة الاخيرة ومع هذا زادت كل مملكة ولكن زيادة بلاد الانكليز والجرمانيين كانت أهم وأعظم فبلغت بريطانيا العظمى اليوم نحو خمسة وأربعين مليونا وفرنسا نحو أربعين مليونا والمانيا خمسة وستون مليوناً والنمسا والمجر خمسة وخمسين مليونا وايطاليا خمسة وثلاثين مليونا واسبانيا ثمانية عشر مليونا فمنها ماتضاعف ثلاث مرات ومنها مرة ومنها مرتين

وقد نفى سكريتان ان تكون قلة السكان ناشئة من فساد الآداب وقال ان الروس باقرارهم أنفسهم من أعظم الموغلين فى المفاسد والموبقات ومع هذا يزيد سكان الارياف عندهم . والسبب فى قلة المواليد هو فى الحقيقة ارادة الرفاهية . الولادة لا تشكو من الفقر ولا من حرية

الفكر ولا من حرية الاخلاق وما خرابها آت الا من كثرة الحذر الذى هو ابن الطمع .

***

عرف السورى منذ القديم بحب الهجرة للكسب واحراز المجد والفينيقيون أو سكان الساحل الاوسط من هذا القطر كانوا رواد الحضارة وربابنة البحار فى سواحل البحر المتوسط حتى بلغوا شطوط الجزر البريطانية فى أقصى شمالى أوربا وانشئوا المكاتب التجارية فى جنوبى القارة الاوربية وشمالى افريقية وكان من أخلاقهم مايشبه هذه الاعمال والهجرات ولا سيما على عهد الحكومة الرومانية حتى اذا جاء الاسلام كانت منهم جيوش وقواد وقضاة تسافر الى القاصية ورجال الشام كانوا فى مقدمة الفاتحين للاندلس فى الغرب وهم الذين فتحوا الفتوح فى الشرق وأوغلوا فيها حتى وصلوا الى بكين عاصمة الصين وضربوا الجزية على صاحبها . وبعد فان فتن التتار والصليبيين أضعف حال البلاد وقللت سكانها خصوصا على عهد حكومات الاقطاعات الظالمة فقلت الولادات وكثرت الوفيات والامة المظلومة فى الغالب يضعف تناسلها ويكثر الموتان فى أولادها بل تندر النضرة فى وجوه أهلها وهم تقصر الحوادث السماوية فى انتياب هذه البلاد فكانت الزلازل والاوبئة تحصد أهلها بالالوف وما بقى منهم يهلكه الظلم . وقلة العلم .

حتى اذا جاء القرن الماضى ونشر خط كلخانة ووضعت التنظيمات الخيرية ودخلت البلاد العثمانية فى طور أحبت فيه احتذاء مثال الغربيين فى ادارتها وضعفت سلطة العمل بعض الشئ وقوى ارتباطهم بالمركز

خصوصا بعد انشاء الاسلاك البرقية التى سهلت وصول الشكاوى الى العاصمة بعض التسهيل وأخذ الفلاح يأمن على زرعه وضرعه بالنسبة للماضى والتاجر فى المدن قد تنجو من البوائق متاجره وكثر بعد حوادث سنة ١٨٦٠ اختلاط أهل هذا القطر بالغربيين وأنشأت الجمعيات الدينية مدارسها الراقية فى المدن والقرى . بعد كل هذا عادت النفوس تنموا خصوصا فى لبنان بعد نظامه الجديد وارتفاع أعلام الامن فى ربوعه وأصبح من الندرة الاغتيال والاقتتال فيه فكثرت نفوسه

واذ كانت زراعة لبنان ضعيفة تعد بين الزراعات فى الدرجة الثالثة أو الرابعة لم يقم بمعاش سكانه فاخذوا يهاجرون أولا الى البلاد القريبة منهم ولما تنوقلت الانباء عن نجاح جماعة من تجار بيت لحم فى أميركا سمت الهمة ببعضهم الى السير على آثار من سبقوهم وساعد على ذلك اتصال آسيا بافريقية وأوربا وأميركا بالبواخر فوق بعض من هاجروا لبنان الى جمع جانب من المال فاشتهر بين قومهم نجاحهم وأخذ يتبعهم فى خطتهم الاقرب فالاقرب من سكان البلاد وكان أهل الجبال وهم معتادون القلة وشظف العيش فى الجملة هم الناهضون لهجرة بلادهم . ولم تمض بضع سنين حتى سرى داء الهجرة الى الاصقاع المخصبة من أرض الشام مثل وادى الاردن ووادى العاصى وسهل البقاع وسهل حوران فجارها جبل لبنان وجبل عامل وجبل حرمون وجبال عكاء وجبال اللكام وجبال الخليل واشترك السهل والوعر فى الهجرة ونال من آثارها دمشق وبيروت وحلب والقدس كما نال أحقر قرية .

واشتهر فى الاكثر من ارتاشوا واغتنوا وآبوا الى بلادهم فعمروا لهم دوراً على الطرق الغربية واقتنوا الاملاك وأقاموا العقارات وأخذوا

يحظ من الرفاهية ونسى الناس أو لم يذكروا من هلكوا وتشتتوا فما عتمنا وقد حسبنا الراحل عنا والراجع الينا الا وقد أصبح المهاجرون زهاء أربعمائة ألف رجل على اقل تقدير من السكان مهما بالغنا فى تقديرهم وعددنا فى جملتهم بعض البوادى لا يبلغون أكثر من أربعة ملايين وقدر بعض الصحافيين عدد المهاجرين من السوريين بخمسمائه وسبعين ألفا وغالى بعضهم فقدرهم بزهاء مليون ويمكن أن يجاب عن هذا التقدير الكبير بالاثر الحادث عنه أى بأضافة عدد من الاولاد الذين كانوا يولدون لهذا القدر من المهاجرة لو بقوا فى بلادهم من أزواجهم أو تزوج العزب منهم فى السن المعينة للزواج فى هذه البلاد .

خسرت البلاد من وجهين فى الجملة وربحت من وجهين خسرت البلاد من عمل هؤلاء الشبان المتغيبين سنين عن أوطانهم وعن تعطلهم عن التناسل وربحت مما حملوه الى الشام من النقود والتهذيب الغربى ولكن الخسارة أعظم بدليل أن الثروة هى العمل لا النقود كما يقول علماء الاقتصاد وأن التهذيب الذى حملوه ناقص لانه علمهم أموراً رفعت من شممهم فلم يعد يستطيع المهاجر أن يقيم فى قريته اذا آب اليها بعد تغيبه عنها بضع سنين اذ يرى الفرق محسوسا بين ماشاهد فى بلادغيره وعهدفى بلاده ويتأفف من عمله الصغير فى الزراعة أوالصناعات الضعيفة فلا يلبث أن يعود أدراجه الى أميركا ويختار الموت هناك على البقاء فى أرض ذلة وقلة .

ولذا لاتعجب اذا رأيت مئات من الدور الفخمة التى عمرت بدراهم أميركا فى هذا الديار خالية من سكانها يلعب فيها الجرذ والفار ولا من يقطنهاالان بناتها عادوا فرحلوا اما طلبا لثروة غير التى نالوها وصرفوها

كلها فى انشاء دورهم وأما لضيق صدر نالهم من سوء ادارة وفساد نظام وهذا قليل .

قال قنصل فرنسا فى تقريره الاخير على بلاد الجليل : ان هؤلاء المهاجرين ينفعون بالاجور التى يؤدونها لشركات الملاحة ولكنهم يضرون البلاد فى ارتقائها الاقتصادى اذ يحرمونها من الايدى العاملة وقد نجحوا بأن أسسوا فى البلاد التى هاجروا اليها (أميركا الشمالية والجنوبية وأوستراليا وأفريقية الجنوبية أو مصر) مستعمرات مهمة للغاية وكثير من غادروا بلادهم حفاة لايملكون أجرة المركب الذى يقلهم وهم فى الدرجة الرابعة قد عادوا اليها يحملون الدنانير فى جيوبهم أو الاوراق المالية . وقد اقتبسوا الاذواق والعادات الغريبة وأنشأوا يستخدمونها فى بيوتهم وهم يبتاعون الاراضى وينشئون الزراعات الكبرى وأكثر العائدين منهم على ماأظن هم اللبنانيون والبقاعيون .

قال : وأما سبب الهجرة فلارتفاع وصاية الحكومة عليهم ولعدم قوانين لحماية الزراعة ولندرة معاهد المعاونة والاحسان ولارهاق العشارين والمرابين ولكسل لاينفض غباره الا بالاقلاع عن البلاد وحبا بالارباح السهلة واقتداء بمواطنيهم المنتشرين ولجذب البلاد الجديدة لهم وبينا نرى الوطنيين ولا سيما من سورية يهاجرون نرى الاجانب يهاجرون اليها ولا سيما فى فلسطين (أى الصهيونيين) اه .

وبعد فقد كانت الهجرة مقصورة بادئ بدء على المسيحيين فأخذ اخوانهم المسلمون يقتفون آثارهم وكثر المهاجرون من جميع الطوائف فى السنين الاربع الاخيرة عندما طبقت الحكومة قانون الجندية على عامة شبان هذا الوطن فكان الوالد يسفر ولده فى العشرين والخامسة

والعشرين فأنشأ يرحله اليوم في الخامسة عشرة بل وفى الثانية عشرة لينجو من الخدمة العسكرية أو ليجمع بدله النقدى قبل أن تصيبه القرعة وبعد أن تفاقم شر الهجرة فى العهد الاخير أرادت الحكومة أن تمنع الشبان من السفر فكان ذلك مورد عيش جديد لارتشاء بعض الولاة والمتصرفين والقائم مقامين ورجال الشرطة وكثرة سماسرة المهاجرة حتى لم يتركوا مزرعة الا ولجوها وأخرجوا منها أعزة أهلها وسهلوا لهم سبل الهجرة ووجد حتى الفقير المعدم من يقترض منه على انه يوفيه من عمله فى ديار المهجر وزادت المنافسة بين شركات الملاحة فاصبح السفر ميسوراً من بيروت الى نيويورك بمشرليرات وزاد الصادر وقل الوارد وكلما أمل المؤملون أن تهدأ أحوال البلاد تعقدت مشاكلها الداخلية والخارجية وانتشرت عن البلاد أخبار السوء فتأخر عن العودة اليها أبناؤها الذين هجروها .

هذا والحكومة لم تتذرع بأدنى سبب لنزع هذا الخلل فى حياة البلاد من اصوله بل ان النوائب الاخيرة التى صادف وقوعها فى عهد الدستور لم تزد البلاد الا فقراً اذا اضطرت الحكومة أن تزيد الضرائب والعشور والرسوم فضعفت الزراعة وأكثر من ثلاثة أرباع هذه الامة تعيش من أرضها وارتفعت أجرة العامل الى أعلى من منسوبها فاصبح فى بعض الاصقاع الزراعية من المتعذر القيام باعمال الزراعة على ما ينبغى لصاحب ملك ومزرعة لأنه اذا أعطى العامل فى اليوم ثلاثة أرباع الريال أو الريال لا يبقى له فى آخر السنة ما يوازى نصف أيجار أرضه ولولا أن بعض البلاد التى أعوزتها اليد العاملة مثل البقاع استعاضت عنها بما جلبته من الآلات الزراعية الحديثة كالحصادة والدراسة والحراثة والذراية

والطحانة لأمست زراعتها بائرة ولو جرى أهل هذا القطر على سنة أهل طنة (أذنة) فى قليقية من آسيا الصغرى وأكثروا من الادوات الحديثة تم لهم الغنى وعوضوا ما فاتهم من عمل العاملين ولعاد جديبها خصيباً ونالوا من أسباب الثروة حظاً عجيباً .

اذا قدرنا ثروة السوريين فى مصر والسودان وأميركا وكندا وأوستراليا والترنسفال ومدغسكر والسنيغال بمئة مليون جنيه (١) وهو أقل تعديل لان نصف هذا المبلغ يملكه السوريون فى مصر فقط وفرضنا أن نصف المهاجرين أحبوا العودة الى أصقاعهم يحملون خمسين مليون جنيه من النقود ومازكنوه وتعلموه من أساليب الصناعة والزراعة والتجارة تفتح بالطبع موارد اقتصادية جديده فى البلاد اذا صحت قبل كل شيء نية الحكومة على توطيد دعائم الامن واحقاق الحق وذلك باختيار طبقة راقية من العمال والضرب على أيدى الجاهلين والمرتشين منهم

نعم اذا قامت الحكومة بواجبها الادارى تستميل المهاجرين الى العودة وتحبب اليهم بلادهم التى يؤثرون أن يكون لهم فى ربوعها من المغانم نصف ما يتمتعون به فى ديار المهجر فتقوم سورية وحدها بعد بضع سنين بسد العجز من ميزانية الدولة العامة مهما كان مقدارها وبعد فيكاد يكون فى درجة الثبوت ان البشر نما عددهم منذ عرف التاريخ على الرغم مما نالهم من الطوارىء التى ذكرها التاريخ من مثل الحروب والأوبئة أو الاسباب الاخرى التى تفقر النمو وتقلل التناسل . ومع هذا فقد كان النسل كثيرا فى أوربا منذ بضعة قرون وان كان يكثر موت

---

(١) لا تقل فى الحقيقة ثروة المهاجرين من الشاميين عن ثلثمائة مليون ليرة ذهب

الاولاد فى الطفولية أكثر من اليوم وتلتهم الاديار جانبا من الرجال والنساء يتعطلون عن التناسل وليس ترك الارياف والقرى ونزول الحواضر والمدن مقصورا على بلد خاص أو صقيع معين بل هو ظاهر فى كل مكان فى البلاد الاوربية القديمة مثل سويسرا والمانيا وفرنسا وانكلترا وبروج والبلجيك وهولاندة ظهوره فى البلاد التى أخذ سكانها النمو مثل الولايات المتحدة وكندا واستراليا فترك الارياف عام يشترك فيه جميع الاجناس: السلتيون كاللاتين ، والسلافيون كالروس والبلقانيين ، والسكسونيون كالانكليز ولا يظهر أن للاوضاع السياسية والاجتماعية دخلا فيه وما من حكومة من الحكومات خالية منه حتى أن طريقة تقسيم الاملاك لا تمسك الانسان فى الحقول وليس فى قوانين المواريث ما يظهر انه أهمى من غيره فقد خضعت لسلطان الهجرة حتى البلاد المتماسكة الاجزاء مثل فرنسا وانكلترا والمجر وروسيا والولايات المتحدة واوستراليا والارجنتين فان اصقاعاً كبيرة استعمرت منذ زمن طويل فى الولايات المتحدة ولاسيما ولايات انجلترا الجديدة قد خضعت لهذا النظام فترك اهلها قراهم لينزلوا الحواضر يسكنونها فنمت بذلك المدن نمواً هائلا بالنسبة لمجموع البلاد فقد بلغ سكان مدينة بونس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية مليوناً وثلثمائه الف فى حين بلغ سكان جميع هذه البلاد ستة ملايين نسمة تدخل فيها العاصمة ومساحة أراضى الارجنتين خمسة أضعاف مساحة فرنسا وهكذا تجد النمو بادياً فى مدن الولايات المتحدة كنيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وسان لوى وسنسيناتى وبوسطون وسان فرنسيسكو وستل وأورليان الجديدة كما هو باد فى ملبورن وسدنى من عواصم أوستراليا

هذا ماقاله أحد الاقتصاديين فى جريدة الاقتصاد وعقب عليه بقوله تحمل رؤوس أموال كثيرة من العالم القديم أى من أوربا تستثمر فى العالم الجديد فالميون من الفرنكات يستثمر فى أرض فرنسا فيعود بربح سنوى يختلف بين ثلثمائة أومائتى ألف فرنك اذا حسبنا جميع الاراضى التى تتناوله فنربح منه على حين لوجرت تنمية هذا المليون فى البلاد الاجنبية لاتعود من الفائدة بأكثر من ٤٠ الى ٤٥ ألف فرنك

ان من يهاجر الى القاصية كمن يتركون قراهم ليستوطنوا المدن المجاورة يبحثون عن رفاهية أسمى مما تمتعوا به ويظنون بأنهم يحققون أمانيهم فى الجناح بانتقالهم الى محيط يصرفون فيه قواهم بما يعود عليهم بالنفع أكثر ومعنى ذلك يدور على البحث عن اجرة اكثر وهذا هو الباعث الاول على هذه النقلة بل الباعث الوحيد فالاجور هى العامل الوحيد الذى يدعو الناس الى التنقل فى عصرنا احب الهواء الجيد والحياة الاجتماعية ولطف الاخلاق وسلالة العمل فليس لها محل من الاعراب في جملة هذه الحال

ترى العامل فى الولايات المتحدة واوستراليا يتنقل من المدن الى القرى وبالعكس لان الاجور واحدة فى الزراعة والصناعة وكلها رابحة والقاعدة العامة فى ذلك ان المدن والقرى تمسك السكان متى كانت اجورهم مضمونة وحالتهم مأمونة فقد قل المهاجرون من المانيا منذ كثرت صناعتها ونمت بحريتها وتجارتها ويقل المهاجرون من المجر وروسيا وايطاليا متى حسنت حالة الزراعة فيها وانتظمت اسباب التملك وجودت الاسباب الاقتصادية اى الاجور فاذا كانت البلاد الجديدة تستميل اليها المهاجرين بمئات الالوف بل بالملايين فذلك لانها توزع اجورا عالية واوربا وانكلترا

وفرنسا واسبانيا وايطاليا وروسيا والمجر تبقى اليد العاملة فى الحقول اذا ارتفع سعر الأجور الزراعية وذلك لايكون الا بتنويع الزراعة وتكثير المحاصيل والمواشى وتكثير الايرادولو قلت اسعار الحاصلات

ان هولندة التى نعتبر مجموعها ارضا فقيرة لاذ فى استثمارها صعوبة قد كثر سكانها اليوم كثرة زائدة بفضل عملهم بحيث حق على الهولنديين ما قاله فرنكلين «بالقرب من رغيف الخبز يولد وجل» والمرء كلما دفعته الحاجة يحسن الاحتيال على المعاش واميركا واوستراليا الى اليوم لم تستثمر من ارضها خيراتها كلها بل ان خصبها هو المساعد فقط على الكسل فى غربى اوربا فان العمل هو الذى يستثمرها وبعد فان المجتمعات لاتحيا بالنظريات بل بالعمليات وكل نظرية تخالف المصالح الحاصلة فى كل بلد لا يتأتى أن يجرى فى العمل الا اذا جعلت هذه المصالح قيد النظر

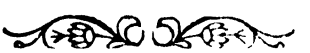

الهجرة الى مصر

اذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها ويسيطروا على المخلوقات كلها ، فالارض هى المنزل العام يجلس أهله فى أى ناحية منه أحبوها وراقتهم . ويتنقلون فى بقاعها وأصقاعها ووهادها ونجادها ، وسهلها وحزنها ، وبحرها وبرها ، على حسب ما تقضى أحوال الصحه ، وطبائع الاجسام ، وخواص النفوس

فقد هاجر الفينيقيون قديما وأقاموا قرطجنة ، عمروها وغيرها من شواطىء البحر الرومى ، وهاجر القوط من جرمانيا الى جنوبى أوربا وداهموا المملكة الرومانية ، وهاجر الروم من بلادهم الى شواطىء البحر المتوسط وجزره وشواطىء البحر الاسود وبلاده وعمروها . وكثير من الأمم أمثالهم غادروا مسافط رؤوسهم ، واتخذوا لهم بلادا ثانية استعمروها .

وهاجرت فى العهد الحديث أمم كثيرة ، وأهم هجرة وقعت هجرة الاوربيين الى أمريكا ، عمروها بجنسهم الابيض بعد أن كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك هجرة الهولنديين الى جنوب أفريقية وهجرة الروس الى سيبيريا ، هجرة القافقاسيين والجراكسة الى البلاد العثمانية ، وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا ، وهجرة المسلمين الروسيين الى أميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل فى الجاهلية والاسلام بل ان

الهجرة من طبيعة جزيرتهم يعمدون اليها طلباً للكلأ والمراعي ، أو للاتجار بنتائج مواشيهم وحاصلاتهم ، وأول هجرة فى الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابه وأربع نسوة وقيل أكثر أمرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة لما رأى مايصيبهم من البلاء قائلا: لوخرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكا لايظلم احد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه فخرجوا ثم عادوا بعد سنين ، وهكذا هاجرت العرب الى فارس ومصر والشام وأفريقية والاندلس والسند وكشغر لما فتحت ولولا إقدامهم على الهجرة مارأينا الاسلام منتشراً فى قلب آسيا وأفريقية

ولانزال الى اليوم نشهد أثراً من آثار حب العرب للهجرة وقد زادها اليوم قرب المواصلات وسهولة السفر. نرى أهل حضرموت فى جنوبى الجزيرة يهاجرون الى حيدر آباد الدكن الهندية فيكون معظم جيش البلاد منهم، ونراهم يهاجرون الى جاوة فيكثر فيها سوادهم ويعتنى بعض أفرادهم ، ونرى النجديين يهاجرون الى الهند فى التجارة ثم يستوطنوها ويصبحون فيها أصحاب كلمة ونفوذ . ونشهد السوريين يهاجرون الى أميركا وأفريقية فيرتاشون ويتأثلون

وانهيال السورى على هذا القطر (المصرى) خاصة قديم جداً يصعب تعيين زمنه لاتصاله ببلاد الشام براً وبحراً ، ولم تكن القوافل فى الاسلام تنقطع فى البر كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر فى البحر ، ولم تبرح بلاد الشام مصيف مصر واحداهما مكملة لعمران جارتها . وقد وصف ابن فضل الله العمرى فى التعريف بالمصطلح الشريف طريق القوافل بين القطرين كما عقد القلقشندى فى صبح الاعشى فصلا فى مراكب الثلج الواصل من البلاد الشامية الى الملوك بالديار المصرية

ومصر مابرحت كما وصفها ابن خلدون فى القرن الثامن (بستان العالم ؛ ومحشر الامم ، ومدرج الذر من البشر)

نعم هى محشر الامم ولا سيما الامم المجاورة لها من البر أو المناوحة لها من سيف البحر، وذلك لان عمرانها طبيعى مستمر فى معظم ادوارها ولا عجب اذا كانت مهاجر الامم من عرب وعجم، قبل ان تكون نقطة الاتصال بين قارات اوربا وأفريقية وآسيا بفتح ترعة السويس ، فما بالك بعد أن تم لها ذلك ، فمصر والحالة هذه مقصودة من أقطار الارض أكثر مما يقصد اهلها سائر الاقطار، والامة التى تكثر فى الغالب خيرات بلادها لا يهون عليها مغادرتها ، وطلب الحاجيات هو الباعث على المهاجرة فاذا كفيها المرء يصاب بالوفاء وضعف العزائم

وما فتئ السوريون والروم والترك والمغاربة منذ كانت حكوماتهم تتغلب على مصر ينزلون بلاد النيل ، فالروم حكموها زمنا طويلا وكذلك الترك والعرب والجراكسة ، فكان من هذه العناصر أن نزلتها بكثرة وأصبح أكثرهم فيها عمالا وحكاماً وقضاة ، ورؤساء جند وعلماء ، وأرباب صنائع وتجارة ، ولم تكثر هجرة الاروبيين اليها الا عقيب الاحتلال الفرنسوى عند مابدأ الفرنسيس والطليان واليونان وغيرهم من أمم الغرب ويهبطون اليها ، وقد كثر سوادهم على عهد الخديوى اسماعيل لانه فتح أمامهم طرق الهجرة ، وأحسن معاملتهم ووفر لهم المغانم وطرق الكسب .

ولما قبض رجال الاحتلال من الانكليز على أزمة الاعمال أخذ الناس يفدون على مصر من كل فج عميق ، حتى انك لتجد فيها الآن من جميع الشعوب واللغات أناساً أسسوا فيها الاعمال التجارية والزراعية

والمالية والعلمية ، وكثير منهم اغتنوا من خيراتها بفضل كدهم ،وقد قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه أى بعشر ثروة القطر وهكذا سائر الامم ولاسيما الروم والطليان والفرنسيس فان فيهامن هذه الاجناس ألوفا اغتنوا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم ووطناً ثانيا لهم ، وحال مصر اليوم مع المهاجرين اليها يختلف عن حالها مع أمثالهم فى القرن الماضى لان ثقه الامم تزداد بها الحين بعد الآخر ولان الاساس الذى قامت عليه حضارتها اليوم أساس مالى زراعى . خصوصا وقد ظهرت الآن نتائج ما تعب القابضون على أزمة سياستها سنين فى تأسيسه ، واشتهر ذلك عند الخاص والعالم فى الاقطار النائية بما يتصل بهم من أخبارها وأخبار من يغتنون من المهاجرين اليها ممن توفرت لديهم رؤوس أموال أو كانوا من أرباب العقل والعمل فكانت مصر ميداناً لظهور آثارها ، وربما لا يذكر الناس الا من نجحوا وقلما يذكرون من أخفقوا ، عادة فى البشر ولعلها من موجبات أقوامهم على الكسب والكدح فى هذه الدار .

وقد ساعد على كثرة الهجرة اليها حال بعض البلاد المجاورة لها من حيث اجتماعها ومادتها . فترى سكان جنوبى ايطاليا القاحلة يهاجرون اليها أكثر من القاطنين فى الشمال منها لان شمالى ايطاليا مخصب وأهلها مكتفون بما تجود به عليهم أرضهم وسماؤهم ، وكذلك تكثر اليها هجرة سكان جزائر البحر الرومى ولا سيما بلاد اليونان الجديبة وأهل سواحل الشام وجبالها

هذه مصر من حيث مهاجر الامم فهى دولية كما يقول الساسة أو مشتركة بين أجناس وأديان شتى ، والتاريخ يشهد انها كانت رحبة

الصدر بالوافدين عليها فى كل العصور ،للين عريكة أهلها ، ولم يحدث هذا التميز بين سكانها الاعندما أراد مهاجرو الافرنجة أن يستطيلوا على أهلها فاحدثوا لهم مايقال له«الامتيازات» عليها ولم يكن الوافدون اليها على غرار واحد بل كان منهم المنورون العالمون وهم أفراد ، ومنهم المتعلمون المهذبون وهم أكثر ، ومنهم العامة الاميون وهم السواد الاعظم ، ومعظمهم طلاب رزق وسوقة نازعوا ابن البلاد وربما غلبوه لان من جاء فى طلب غرض يحتال للوصول اليه ،والغريب فى الغالب يكون اجرأ وانشط من الاصيل لان الغربة فى ذاتها اماراة من امارات النشاط

وطول مقام المرء فى الحى مختلف لديباجتيه فاغترب تتجدد

والامثلة كثيرة فى هذا الباب من القديم والحديث فليس للوافد مالقاعد من الخمول والاتكال ويكفى ان فى لندرا لهذا العهد وهى مهد الصناعات والارتقاء زهاء مائتى ألف رجل من رجال الالمان استولوا على أعمالها المالية واستأثروا بها دون ابن البلاد المتعلم المنور الذى لايقل عنه فى مواهبه . هذا فى عاصمة انكلترا فما الحال بمصر وأكثر الوافدين اليها هم من الشعوب القوية من أهل البلاد البارة التى تبعث النشاط فى قلوب ابنائها واجسامهم وعقولهم فيتخذون عدتهم استعدادهم . وكدهم رأس مالهم . وعتادهم وذخرهم قصدهم واقتصادهم على حين قد أتت على الوطنى أزمان من الفوضى ضعفت بها قواه فاصبح لايقوى على العمل الا اذا عوده زمنا ولقنه بالتعليم والتربية . وقد فجأته الثروة والحرية مفاجأة بهرته وحيرته ثم أن ابن البلاد فى الغالب لا يسف إلى المكاسب التى يتنازل اليها الغريب فالاول يدل بأرومته

أو يعتز بأمته ، والثانى يذل فى سد حاجته ، ونيل بغيته .

ولما رأت الحكومة المصرية على عهد الوزارة الرياضية أن الوطنى يكاد ينفى فى الدخيل سنت لائحة صعبت فيها على النازل فى مصر أسباب الحصول على حقوق الوطنى الا بعد مقامه خمس عشره سنة وأشعاره الحكومة بعزمه على تغيير جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين . فكانت هذه اللائحة غريبة فى بابها منعت بعض للطراء على القطر من ولوج باب الاستخدام فى دواوين الحكومة وحظرت عليهم تعاطى الاعمال الادارية والسياسية الا انها صرفت وجهتهم الى اتخاذ الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية الحرة . فافلحوا أكثر مما لو كانوا حصروا كدهم فى الوظائف الاتكالية ولم تحق عليهم كلمة « مصر للمصريين » ومن هنا نشأ بغض كثير من المصريين للغرباء كان السبب فى ذلك أولا منافسة هؤلاء لابناء البلاد فى احتياز الوظائف وساعد عليها ما ألفته بعض الجرائد المسموعة الكلمة من عبارات التفرقة . وهناك أسباب أخرى قواها أرباب الاهواء والغايات فانتقلت بالتقليد الى العامة ومن نحا منحاهم من الخاصة .

وليست الشكوى التى يشكوها بعض الوطنيين من الوافدين فى محلها كلها لان من اغتنى بكده أو بطرق غير شريفه فانما غنمه له وغرمه عليه . ولو تسنى لابن البلاد أن يعمل عملها تأخر ، ويا ليت خاصة هذه البلاد يسعون الى نزع هذه الاوهام من عقول العامة حتى لا يبغضوا غيرهم بسبب وبلا سبب ويمتزج بعضهم مع بعض لتحل بوتقة مصر ذاك الدخيل الى المعدن الذى تريد أن يكونوا كلهم عليه فقد ثبت أن هذه البوتقة المصرية أحالت اليها فيما مضى التركى والالبانى والجركسى

والكردى والحجازى واليمانى والعراقى والشامى والمغربى والسودانى والرومى والفارسى فأتى منهم بعد مقامهم قليلا فى هذا الوادى مصريون يغارون على مصلحة مصر وكثير منهم نفعوها وخدموها بعقولهم وأيديهم أكثر من خدمة أبنائها لها تحت أسم مصريين . وما كانت قط بقعة من الارض معلومة الحدود والمساحة وقفا على جنس خاص من البشر لا ينازعها فيه منازع تسرح وتمرح فيها ماشاءت ، فالارض أرض الله ، والناس عباد الله ، وما أحلى بيت البحترى فى هذا المعنى:

والانقل أمم شتى ولافرق فالارض من تربة والناس من رجل

وكل من نظر فى نهوض الامم لايعدم أن يرى بأن كل أمة ربيت على كره غيرها وتجافت عن الاختلاط به وحسن الانتفاع منه تجنى من الخسارة أكثر من الربح

ولقد كانت بغداد من اكبر أمثلة التسامح فى البلاد الاسلامية رفعت مقام الغريب وأحسنت الاستفادة منه فكان يعد بغداد يأكل من دخل بغداد، تساوى فى ذلك عجميها وديلميها وعربيها وتركيها. ونسطوريها ورومييها ومجوسيها ومسلمها . فجمع العدل من شملهم . وآخت الراحة بينهم . وعد سواء فى النسبة اليها من نزلها اليوم ومن نزلها منذ قرن وقد أعان على تكوين هذا المزيج انتقاء الجنسية فى الاسلام . ورفق المسلمين باهل ذمتهم . ولولا ذلك ما قامت تلك الحضارة التى نسبت للمسلمين العرب مع أن أثرهم فيها كأثر غيرهم من الاجناس والاديان ولكن العمل مشترك وهو منسوب لصاحب البيت. كالجنود يشقون فى الحرب ثم ينسب النصر لقائدهم .

وانا لانزال نقول ان من حظ مصر أن تكون البلاد المجاورة لها

محتاجة اليها حتى أشبهت فاس فى القرون الوسطى لما توارعيث الاعراب على القيروان واضطربت قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت محمد بن أبى عامر وابنه ، فرحل من قرطبة ومن القيروان من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فنزل أكثرهم مدينة فاس . قال صاحب المعجب، فى الثلث الاول من المئة السابعه : ان فاس اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذاك الاقليم ، ومارلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ماقالوا ذلك وقال : ان القيروان كانت منذ الفتح الى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها فى كل وجه فمنهم من قصد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس

قصدوا فاس كما قصد الاندلسيون بلاد مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام لما أذن الله بانقراض دولتهم فعدوا من أهلها بل كما رحل الايطالى والالمانى والاسبانى والانكليزى والفرنسوى الى أميركا لما ضاقت سبل الرزق فى وجوههم فعدوا أميركيين وأنشأوا يخدمون أميركا أكثر من خدمتهم لبلادهم حتى اذا تناسلوا فيها جاء اولادهم أميركيين صرفا . وكلما ارتقت الامم تتطال الى ادماج غيرها فى مجموعها ، والامم الافرنجية اليوم أكثر تسامحا فى هذا المعنى من الأمم الشرقية كما يظهر بالاستقراء

قال ابن حزم الاندلسى : ان جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين دون مناشاة أحد بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك متفقون على أن

ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التي استقربها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى أن مات فاق ذكروا الكوفيين من الصحابة رضى الله عنهم صدروا بعلى وابن مسعود وحذيفة رضى الله عنهم وانما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهراً (قال ابن حجر صوابه أربعة أعوام) وقد بقى ٥٨ عاما وأشهراً بمكة والمدينة شرفها الله تعالى ،وكذلك أيضا أكثر أعمار من ذكرنا وان ذكروا البصريين بدأوا بعمران ابن حصين وأنس ابن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف وجمهرة أعمارهم خلت هنالك وان ذكروا الشاميين بدأوا بعبادة بن الصامت وابي الدرداء وابي عبيده ابن الجراح ومعاد ومعاوية والامر فى هؤلاء كالامر فيمن قبلهم وكذلك فى المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى وفى المكيين عبد الله ابن عباس وعبد الله بن الزبير والحكم فى هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه، وخلافه محرم اقترافه ،ومن هاجر منا الى غيرنا ملاحظ لنافيه،والمكان الذى اختاره أسعد به.

التفاضل بالبلاد

ألف الناس التمجد بالبلاد والآباء والاجداد والمدن والبنين عادة في البشر تكثر فيهم بكثر الجهل ، وتقل بانتشار العلم . لقد كان لأهل هذه البلاد من هذا التمجد الباطل قسط وافر ساعد على انمائه في النفوس جهل بعض ولاة الامر السالفين واتخاذ هذه الاضاليل حجة على من يريدون مناوأته وراجاعه إلى الطاعة . لطالما خطب الحجاج في أهل العراق ووصفهم بقوله أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق وأطلق عليهم من قبله ومن بعده من أمراء ذاك القطر مثل تلك الصفات . وما كانت هذه المغالطة لاهل العراق الاسياسة ولو كانت أخلاقهم كذلك وكان فيمن ولى رقابهم علم وشفقة لسعى السعى الحثيث إلى نزعها منهم بحكم العادة والاسوة والقدرة ، ولعل هذه الدعوة كانت جملة فلسفة أولئك الحكام وبيت قصيد حملهم على رقاب الناس: وكان من أهل الشام أن وسمهم أعداؤهم بكل كبيرة وألسقوا فيهم باطل التهمات . وهكذا الحال بين الشام والحجاز والجام والعراق

فان معلمي والمؤرخين والمولفين نبغوا في العراق فأكثروا في مصنفاتهم من الاحاديث الموضوعة على أهل الشام لقلة من كتب هؤلاء ودافع عنهم. ومثل ذلك قل في المغرب مع مصر ومصر مع الشام وفارس مع الهند وكلها في الحقيقة سفاسف لا تساوي درهما عند المحققين ، وما البلاد في أمر الافضلية إلا سواء لا يفضل شرق عن غرب لا جنوب عن شمال الا بالعلم النافع والأدب الرافع والعمران والسعادة . ولذا ضل

رأى من وضعوا من المتأخرين كتباً خاصة فى فضائل بلد أو قطر. وأضل منهم من وضعوا أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم فى تفضيل مدينة أو بلد كما ضل من وضعوا الموضوعات طعناً على فئة خالفت ما هم عليه .

وبعد فالأرض كلها سواء فى هوائها ومائها ، دحاها الله ليعيش فيها البشر ويتنقلوا فى أقطارها وقد لاتختلف الاقطار المتنائية فى قوة الانبات الا قليلا فليس من العقل أن تمدح بلد لجبل فيها ، أوسهل فسيح حواليها أو نهر كبير يمر فى وسطها ، ولا أن تلذ أخرى لحارتها ، أولضيق حاراتها وجاداتها

فكانت مصر ولا تزال مثلا منذ ألوف من السنين طريدة من الارض عرفت بخصبها وغناها الطبيعى . وكانت الشام ولا تزال منذ الوف من الأعواد مشهورة باختلاف اهويتها ورقة نسيمها وتنوع جبالها واوديتها فما عد ذلك فضيلة للاولى على الثانية ولا للثانية على الاولى . بل حسب لهما خاصية يمتاز بها كلا من القطرين بعضهما عن بعض. وقد انصفهما فى الوصف أحد عمال الدولة وقد سئل عنهما فقال مصر مزرعة ممرعة والشام مصيف بهيج

ان كان ماتفاخر به البلاد بعضها بعضا هذا اذا سوغنا التفاخر فبالعلم والتربية وغلبة الفضيلة والخير على طبقات الناس كلها لا بالماء والهواء والواحات والجبال والاودية والاشجار والأثمار وكل ما وزعته الطبيعة بين بلدان العالم فنال كل منها بحسب حالته . دخل أبو الحكم المغربى الاندلسى الحكيم المرسى مدينة دمشق فما حل ظاهرها سير غلام له يبتاع لهما ما يأكلانه فى يومهما وأصحبه نزرا لايكفى رجلين فعاد الغلام

ومعه شواء ،وفاكهة وحلواء، وفقاع وثلج، فنظر أبو الحكم الى ما جاء به وقال له عند استكثاره أوجدت أحداً من معارفنا فقال لا . وانما ابتعت هذا بما كان معي وبقيت منه هذه البقية فقال أبو الحكم هذا بلد لا يحل لذى عقل أن يتعداه ودخل وارتاد منزلا وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به ويطب وأقام على ذلك الى أن وافاه أجله

ومثل ذلك ما وقع للملك المعظم شمس الدين توران شاه أخو السلطان صلاح الدين يوسف لما تمهدت له بلاد اليمن واستقامت أمورها مل المقام بها وحن إلى الشام وفيها نشأ واشتاق إلى خيراتها والتمتع بثمراتها اذ أن اليمن محرومة ذلك . قال ابن خلكان فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقيل منها ويسأله الاذن له فى العود إلى الشام ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التى يحتاج اليها فأرسل صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه فى الاقامة وانها كثيرة الاموال ومملكة كبيرة . فلما سمع الرسالة قال لمتولى خزانته : احضر لنا ألف دينار فأحضرها فقال لاستاذ داره والرسول حاضر عنده : ارسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج

فقال أستاذ الدار: يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج؟ فقال: دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزى فقال أين يوجد هذا النوع ههنا؟ فجعل يعد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر تعجبه من كلامه وكلما قال له عن نوع يقول له: يامولانا من أين يوجد هذا ههنا فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول: ليت شعرى ماذا أصنع بهذه الاموال اذا لم انتفع بها فى ملذاتى وشهواتى فان المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه انه يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه .

ولعمرى هل يصح أن تجعل أمثال هذه القصص حجة فى أفضلية دمشق على غيرها من أمهات المدن حيث المعيشة غالية وهل هذا الرخص مما ينبغى أن يفاخر به وأهل الاقتصاد فى عصرنا يجعلونه اذا استحكم من بلد شؤماً عليه ويعدون البلد كل البلد الذى غلت فيه أسعار الحاجيات والكماليات وارتفعت الاجور والارتفاقات على نسبتها والامثلة على ذلك كثيرة فانه يبلغنا لهذا العهد عن بلاد الاناضول وهبوط أسعار المأكولات فيها لقلة ما يصدر عنها ما لا يكاد يصدق لولا تواتره على ألسن الطارئين على ذاك الصقع فهل تفضل السكنى فيه على الروم أيلى المرتفعة أسعار الارزاق فيه وبعد فان كان لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى فلا فضل لبلد على آخر إلا بالعلم والعمل والسعادة الحقيقية

النزلاء المسلمون ١

قضى الله على هذا القطر أن يكون منذ القديم مهاجر الأمم الارض ولاسيما من الاولى فيض لهم الحكم عليه من روم وفرس وترك وجركس وكردا أو كانوا مجاورين له من شماله وجنوبه وشرقه وغربه فيأتيه بعضهم تاجراً وآخر موظفاً وفريق غازيا . وغيره مسالما. وتربة مصر الجيدة تبتلع من تبتلع من تلك العناصر وتحيلهم بوتقة النيل مصريين . ومنهم من يعود من حيث اتى بعد ان يقضي فى ربوعها زمنا ، وقد استفادوا منها ماديا او معنويا

وكان بعض تلك الاجناس اذا نزلوا العاصمة وقواعد المدن فى القطر يجتمعون فى بقعة واحدة ويؤلفون جماعة او حزباً ويتخذون لهم حارف خاصة بهم يسكنونها ، وحال تجمعهم وعادات يحرصون على الاحتفاظ بها والجنسية علة الضم . اوكما قال امرؤ القيس

« وكل غريب للغريب نسيب » اما اذا نزلوا الارياف فقلما كنت ترى لهم كلمة ، فيبقون فى غمار السكان فى الغالب ويمتزجون باهلها ، فيجعل ذلك لهم فقد لغاتهم أن يكونوا لا يتكلمون العربية ، أو فقد جنسياتهم ان كانوا عربا وماهي ، لا بضع سنين حتى يصبحوا مصريين صرفاً .

والغالب أن كل فاتح يستعين بالغرباء على قيام أمره ويعتمد فى الاكثر على أناس من بنى جنسه . هكذا فعل الرومى والفارسى قبل

---

(١) نشرت فى جريدة المؤيد يوم ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٦هـ

الاسلام ، وهكذا فعل التركى والجركسى والكردى والارناؤدى بعده . وان كان الاسلام قد منع من القول بالجنسية والعصبية؛ولكن الدول تراعى فى هذا الشأن حالة الزمان والمكان . ثم ان الغالب يرى من الواجب عليه أن يقرب اليه الاقرب والاقرب ، والاقربون أولى بالمعروف .

هذا اجمال من تاريخ نزول الذين هبطوا مصر فى الادوار السالفة وانا لنرى منه اليوم مثالا مجسما من المحتلين ، وتوسيدهم الوظائف الكبرى الرابحة الى أبناء جلدتهم ، فاذا لم يجدوا منهم من يرتضونه. يختارون أن يوسدوها ان أمكن لرجل أوربى بدل المصرى أو العثمانى ، كما يختارون توسيدها للمسيحى أو غيره من غير أهل الاسلام

يمثل هذه الحال السياسية يحدث الخلف بين الوطنى والنزيل ، ويلتف كل فريق على فريقه ، والحكام من وراء ذلك يسرون بهذه الفرقة بين الاجناس والعناصر مادامت القاعدة التى سارت عليها الحكومات هى «فرق تسد» ولذلك كان يزداد هذا التنافر بين الدخيل والاصيل كلما نفخ الحاكم فى ضرامه ، ويخمد كلما انقطعت عنه مادة التفريق ، وهذا ما دعا الى أن تكون لكل عنصر من النزلاء جمعياتهم الخاصة بهم ومدارسهم وكنائسهم وحاراتهم ومحالهم وأنديتهم .

لا يكاد يمضى شهر الا ويجيئنى كتاب من جماعة يطلبون الى أن أشاركهم فى جمعية سورية يريدون تأسيسها لغرض اجتماعي أو أدبى أو خيرى وأن أساعدهم مساعدة أدبية بالقلم؛ اذا لم تتيسر لى مساعدتهم

بالدينار والدرهم فاعتذر اليهم فمنهم من يقبل العذر، ومنه من لا يقنعه قولى ويحمله على ما يقع فى نفسه من الظنون . ومعظم هؤلاء الداعين جماعة من المسيحيين يريدون أن يكثروا بالمسلمين سوادهم ويستعينوا بهم على غرض يرون فائدته لابناء بلادهم

المسلمون العثمانيون أو السوريون فى مصر أفراد قلائل بالنسبة لسائر العناصر ولذلك لم ير اللورد كرومر فى كتابه «مصر الحديثة» أن يخصهم بكلمة لقلة سوادهم وبعبارة أخرى ان أكثرهم من التجار أو من السوقه لا يدخلون فى مسائل البلاد العمومية ولا يتأتى للاحتلال أن يعتمد عليهم لان الدين يمنعهم من خدمة أفكاره وهم يرون المصريين اخوانهم فى الدين والتابعية واللغة والجوار ، وهل أعظم من ذلك رابطة .

وما راعنى أمس إلا كتاب من أحد المسلمين السوريين من تجار هذه العاصمة يقول لى انه ساع مع بعض أصحابه فى تأسيس جمعية خيرية اسلامية سورية بالقطر المصرى تساعد الفقراء السوريين المسلمين ممن لا ناصر لهم ولا ملجأ يلجأون اليه عند الشدائد وذلك لان الفاء حبلهم على غاربهم مما يشين سمعتنا الادبية بين الخاص والعام ولا فرق فى ذلك بين الدمشقى والحلبى والبيروتى والطرابلسى وغيرهم لانهم كلهم أبناء طائفة واحدة وتظلهم راية واحدة. ويدور محور أعمال هذه الجمعية على مواساة الفقراء وتربية الايتام على الطرق الحديثة وادرار الارزاق على الارامل والمرضى ، وتجهيز الموتى وتسفير الفقراء وتتولى الجمعية غير ذلك من أعمال الخير وستكون قيمة الاشتراك فى الشهر عشرة

قروش صحيحة اذا تبرع بعض الاغنياء بأكثر من ذلك فيكون لهم الفضل الخ

هذه خلاصة الكتاب وفيه من الحث على مساعدة الجمعية ما هو طبيعى ولكن حسن ظن القوم بى لا يمنعنى من النصح لهم بأن يجعلوها جمعية خيرية مطلقا بدون وضع اسم «السورى» عليها وأرجو أن لا يحمل ذلك على ضعف الوطنية بل أن يتدبر القائمون بالأمر فيما أقول

المسلم السورى هنا لا يعتبر كما يعتبر غيره خصوصاً وهو كما قلنا لم يدخل فى معترك السياسة المصرية ، ولذلك ينظر اليه المصرى بأنه أخوه ووطنيه يعامله كما يعامل ابن النيل ويبوح اليه ببثه وحزنه ويصاهره ويعاشره ويرتبط به ولذلك تدعو الحكمة أن يقوم السورى هنا — ان كان لا يرى مندوحة له عن أن يسمى نفسه بهذا الاسم — فى جميع أعماله تبعاً لاخيه المصرى

يستعمل السورى الخير ولكن لا على أنه سورى بل على انه مسلم اومصرى ، لان الادب يقضى عليه أن يندمج فى جسم أخيه المصرى لينتفع كلاهما بصاحبه .

وماجزاء من يحب الا أن يحب .

ومن أدب الغريب أن لا يجهر بان مصلحته تخالف مصلحة من ينزل عليه

المسلمون من أهل البلاد المجاورة لمصر ما زالوا منذ القديم يهبطون هذا القطر كسائر الامم ، ولكنهم يندمجون فى سلك أهله ولا يلبثون

أن تكون لهم نفس حقوقهم وذلك لما وقر فى النفوس من انتفاء الجنسية فى الاسلام ، ولان من مصلحة النزيل أن يكون تبعاً للزميل لا يقاومه فى رغباته بل يخدم الغرض الذى يرمى اليه مادام الغرض لا يتعدى طور العقل فيجد النزيل من ابن البلاد كرم الوفادة بما لا يعذر به ابن البلاد نفسها . والغريب بالنظر لنشاطه اذا لزم الادب مع من ينزل عليه يربح أكثر من حرصه على الاسماء

وما سورية ومصر الا بلدان متجاوران والسورى الذى ينفع مصر مصرى والمصر الذى ينفع سورية سورى .

الحمد لله ان خلقنا فى زمان سقطت معه دولة التحزب للجنسيات ، فلم يعد الناس كما كانوا فى الازمان السالفة يعادى بعضهم بعضاً فى القطر الواحد بل فى البلد الواحد بل فى الحارة الواحدة على اسماء ما أنزل الله بها من سلطان

اللهم الا عدم المعرفة بطبيعة الكون ، وطبيعة تنقل الناس فى هذه الارض منذ القديم

الحمد لله أن جئنا فى زمن نسمع فيه ان البشر يفكرون فى اختيار لغة واحدة تجمعهم ليتعارفوا بها ، وأن يزيلوا الحدود من تخوم الممالك حتى لا يكون بين أمة وأمة ما يصدرهما من الاختلاط وجلب المنافع ودرء المضار

وان كل عاقل ليوقن بأن النغمة التى ضرب على وترها بعض السوريين فى هذا القطر على عهد انتشار حرية الاقلام لم تكن الا من باب « خالف تعرف » أراد بها أربابها التذرع الى نيل الشهرة

أواغراضا مادية أخرى .

ولذلك أخشى أن تكون تلك النغمة التى سكنت نأمتها الآن هى التى بقيت بقاياها فى اذهان بعض المسلمين من السوريين فقاموا اليوم يريدون ان يخرجوا عن الجماعة ويؤسسوا لانفسهم بأنفسهم جمعية تضم شتاتهم ولو فعلوا لكان شرها اكثر من خيرها وعلى الله قصد السبيل

٢

فقيد النثر والشعر

المرحوم

ولى الدين بك يكن

المرحوم ولى الدين يكن

بقلم صديقه الكاتب الاجتماعي أسعد خليل داغر

« رأى فى ما يكتبه ولى الدين يكن نثراً وشعراً ان نثره شعر مطلق من أغلال الاوزان وشعره سحر ومن بعض معجزاته خوارق البلاغة والبيان · فهو يرسل النثر البديع . كما تنثر الطبيعة زهرة الربيع . وينظم الشعر كما تنظم الدرر فى الاسلاك . او الدرارى فى الافلاك . ولكن أكثر شعره كالغناء العربى يخترق شغاف القلب ويبلغ خلايا النفس لا ليسر ويعجب ولا ليرقص ويطرب — وان كان يسحر ويخلب . بل ليشب لواعج الاشجان : ويبعث على الشجو والتحنان .

« فولى الدين فى شعره مغن بارع رخيم الصوت ولكنه شجى الشدو والانشاد . وطائر غريد لكنه بكاء نواح لاصداح صياح . وانى لارى شجوياته مقتبسة من لطف اخلاقه ورقة شعوره وشدة تقلبات دهره اذا شعره فلذة من نفسه وقطعة من حسه ! »

آثار اقلامه

المرأة

شهدت مصارع ثلاث نسوة . احداهن قتلها الاستبداد والثانية أرداها الجهل والثالثة أودى بها الحجاب . فقـل فى ثلاثة أنجم طلعت بأفق الصبا ثم احتواها الافول . شباب غض اذوى ريب المنون بهاره وأنس قريب أبعدته وحشة القدر . فأما التى قتلها الاستبداد فامرأة جركسية كانت مقيمة مع أهلها بقرية من قرى (العزيزية) التابعة لولاية (سيواس) . اشتراها أحد رجال (س . . . باشا) من ابيها بخمسة وعشرين جنيها . فلما قدم بها الاستانة على سيده اهداه اياها . فاسكنها حرمه وكساها وحلاها حتى إذا خطرت لديه رأى فى مواطئ قـدميها مواضع لجباه العاشقين فخطب ودها فنظرت اليه بعينين نجلاوين لاواقى لقلب رمتاه وقالت .

مكانى فى خدمة الامير أحب الى مما عداه

فما زاده ذلك الا حبا لها واستهتارا بهواها وما زادها الا نفورا منه وبغضا . فتمكنت ذات يوم من انفاذ كتاب لابيها تشكو له ما تجد من اشتياقها الى أمها وأخوتها وتعلمه بما تحس به من اضمحلال قواها . فاصابت شكايتها موضع الرحمة من فؤاد ابيها وأقام أياما يتزود للسفر اليها . . . فلما عاد من سفرته قالت له امرأته كيف حال من بعتها فقال رحمة الله عليها . . .

وأما التي أرداها الجهل فغانية كتمثال فينوس استصحبها أبوها الى بيروت وهي في الخامسة من عمرها وأدخلها هناك احدى مدارس الراهبات أخذا برأى صديق له . فلما اتمت علومها التي في مدرستها أخرجها أبوها وقد بلغت الثالثة عشرة وأوجب عليها الحجاب ومجاورة البيت ومنعها مطالعة الكتب الافرنجية . ولقد قالت له اذن لم علمتني ما لا تريد ان أعمل به : فقال لها لي الامر وعليك السمع والطاعة . فدعي الجدال ولا تتشبهي ببنات النصارى . أنت والحمد لله مسلمة وابوك مسلم وامك مسلمة . فامتثلت المسكينة وفي النفس ما فيها

فبينا هي ذات يوم في غرفتها اذا بأمها داخلة عليها فما تقابل النظران الا بادرت الام الى ابنتها قائلة . جاء اباك خاطب يخطبك منه فقالت الفتاة لا اريد الزواج . فقالت الام لكنه فتى جميل كانه احد ابناء الملوك . قالت الفتاة مالي وجماله وغناه ومشابهته لابناء الملوك . انا لا اعرفه فلا اريده .

ثم مضى شهران وفي اول الثالث زفت المجهولة الى المجهول ثم مضى شهران فدخل عليها زوجها يوما وفي يدها صورة رجل مكشوف الراس عليه ثياب قواد الجنود وفي يده قبعة . ففار دم زوجها وثار غضبه وادركته غيرة الزوج فعمد الى خنجر كان يحمله فشق به بطن امراته فاذا هي جسد بلا روح . ولما تأمل الناس ورجال القضاء الصورة التي اغضبت الزوج اذا هي صورة واشنطن الشهير محي مجد اميركا ! ! . .

واما التي قتلها الحجاب فقد تزوجها رجل من اهل ادنه شديد الغيرة . دخلت بيته ليلة زفت اليه ولم تخرج منه ابدا حتى اذا مرضت وثقل عليها المرض واشتد الالم دعا زوجها طبيبا واخذ يصف ما تشكوه

فقال انا لا اذاوى على السماع ولا بد من رؤية المريض وفحص موضع العلة . فابى الزوج الابى ذلك . وما مضت ايام قلائل الا وقد ازروها فى اكفانها وشيعوها الى منزلها الابدى . من ضريح الى ضريح

واعرف نوادر غير هذه لا اكلف نفسى ألم ذكرها ولا اهب القراء كمد العلم بها . هذا فؤاد كالبرهان . له ايام يثور فيها . وله ايام يسكن فيها . وكم لى عند الايام من ثارات ولكن ضعف الطالب وعز المطلوب

على انى راض بان احمل الهوى واخلص منه لا على ولا ليا

فواعجبا . الله يخلق هذه الصور فيمسح عليها من الجمال ما يستخف لب الحكيم ويودع فى تلك الارواح لطف الالهام ونور اليقين فاذا هى تكاملت فى أشكالها تخاطفتها ايدى المتغلبين فقالوا هذا متاع حسن ولهو ومسكن لذة ومستقر هوى !!! ضلال فى ضلال

اما لو كانت فى الغانيات مثل جورج ساند ومثل مدام دونواى لتقاعست همم المستبدين

رأيت رجالا يبذرون المال تبذيرا فاذا أقاموا الافراح نصبوا السرادقات ورفعوا الاعلام وأوقدوا الزينات ومدوا الموائد وجاءوا بالمغنين والمغنيات واستكملوا أسباب المسرات . كل ذلك ليدخلوا باسرأة لا يعرفونها . خطبوها لانها خلقت لتخطب فاذا صارت فى ايديهم اياما ملوا حديثها وسئموا قربها وراحوا يفتشون على غيرها فمثلهم كمثل الطفل المدلل يرى اللعبة فيبكى لابيه وامه حتى يبتاعها له . ثم لا يلبث ان يحطمها ويطرحها جانبا ليأتيا له بغيرها

هذا عصر غارة شعواء يشنها المجددون على شيعة الراى القديم وما ضرنى وقد اشتعل الراس شيبا ان اتقدم صفوف الشبان . فان لم

اكن صاحب امرهم فما على ان اكون حامل رايتهم . فمن لى بصاحب تحرير المرأة أن ينفض عنه تراب القبر ويخرج الى الاحياء ليرى مبلغ استفادتهم من رأيه . أما أنه لو فعل ولن يفعل وقرأ ما يكتبه قوم فى ابقاء الحجاب والتحكم على أمهات الاجيال الآتيـة لـكر راجعا الى مرقده وأغمض عينيه حتى لا يرى وأذنيه لـكى لا يسمـع وأنشد قول الحـكيم القديم

ضجعة الموت رقدة يستريح الجـ ـسم فيها والعيش مثل السهاد

التعصب

لى رفقـة أنجاد وأبناء أمجاد . أتوا الفضل ورزقوا النهى . تجمعنى واياهم مجالس سمر كلما خفت عنا تـكاليف الحياة . ففيهم الشاعر والـكاتب والعالم والطبيب والفيلسوف كل يفيض من مكتسبات علمه ما يشرح صدور مستمعيه . قال قائلهم ذات يوم ياليت فينا فقيها يعلمنا من ديننا مثل ما نعلمه من دنيانا قالوا له وماذا يهمك من دينك وأنت مصدق له لا تشك فى أمر من أموره . قال ياسبحان الله وهل فى زيادة الخير بأس قالوا كلا فقال أحد الرفقة غدا آتيكم برجل فقيه اعرفه منذ زمان مديد يسكن دارا مجاورة لدارى قالوا ذلك فضل نذكره لك مع ماسبق من مثله

وفى مساء اليوم التالى انتهينا الى بيت رفيقنا الطبيب فانتظم مجلسنا واقمنا ننتظر قدوم صاحبنا مع الفقيه . وقد اجمعنا على التزام الوقار وترك ما كان يقع بيننا من المزاح وان لم يتجاوز حد الادب والاحتشام وما طال بنا الجلوس ساعة الا وصاحبنا الـكاتب داخل علينا يقود رجلا كالجمل على راسه عمامة كالهودج متلفعا رداء كانه قطعه من اديم الليل .

فحيانا وحييناه واجلسناه فى صدر المجلس وقلنا لشاعرنا هات شيئا نفتتح به حديثنا : فقال :

— عن لى خاطر ليلة أمس بعد أن نزعت ثيابى ولزمت فراشى فقلت أبياتا ثلاثا أظننى لم يسبقنى اليها غيرى

فتبسم الفقيه وقال أنا احب الشعر وان كنت لا أقوله فهات ماعندك وما أراك الا مطربنا . فانطلق الشاعر ينشدنا قوله

سيدتى انى امرؤ شاعر آخذ من حسنك ما أنظم
تلهمنى عيناك معنى الهوى فكل ما أقوله ملهم
قد كنت أرجو منك لى رحمة لكن قلوب الغيد لا ترحم

قال الفقيه المجاملة تقضى بمدح الابيات والحق يقضى بنقضها فاى الحكمين أحب اليك

قال الشاعر — حكم الحق

قال الفقيه — هذه أقوال ليست بمصرية وللعصر العشرين ذوق خلاف ما كان بالعصور الماضية . هلا قلت مثل اسكندر سومى الفرنسوى وقد توفى منذ نصف قرن فى قصيدته التى سماها الفتاة المسكينة . « انظر الى الحجر حيث تفجرت آلامى ألتمس آثار المدامع التى ربما اراقتها عليه أمى عند تركى » هلا قلت كما قال أندره شينيه فى قصيدته التى سماها الصبية الاسيرة : لئن مرت أيام فربما خلت أيام فوا أسفاه أى شهد لم يمح مذاقه وأى بحر لم تهج أمواجه » هلا قلت مثل لامارتين فى قصيدته التى خاطب بها البلبل « وهذا الصوت الغريب الذى أسمعه أنا والاملاك . وهذ الزفير الخالص فى الليل هما من معانيك أيها الطائر المطرب » فلم لا تقولون أيها الشعراء مثل هذه المطربات

فأكبرنا الرجل وزاد فى عيوننا هيبة وقلنا فقه وأدب هنا والله ماتقر به الاعين وتركنا الشعر وانتقلنا الى غيره فما فتح أحدنا بابا فى علم يعلمه من طب وحكمة الا نفذ منه ذاك الفقيه . فأفاد وأجاد فداخلنا الريب فى حقيقته . وأخذ كل يسر الي من بجانبه مايراه فى الرجل فقلنا نستنطقه فى علمه الذى هو الفقه ونستفتيه فى أشياء ربما كنا غيرعارفين بحقائقها . واذا كان قدره فى أمور لم ينقطع اليها فكيف به فى ما هو منقطع اليه فقلنا له

أتأذن لنا فى استيضاح ما أشكل علينا من أمور الدين

ـ قال نعم . سلوا ماشئتم

قلنا — هل لبس القبعة (البرنيطة) محظور دينا

قال — كلا . وفى لبسها منافع جمة فهى تقى الرأس والوجه حرق الشمس وتحفظ العين من اشعة نورها

قلنا — هل حجاب المرأة واجب شرعا

قال — لا . واى شرع يكون شقاء على العباد

قلنا — ولم يتخرص بعض الناس بأن ذلك حرام وذاك واجب ويقيمون القيامة علينا وعلى من يقولون بمثل قولك الآن

قال — يفعلون ذلك تعصبا واستبداداً وهم يعلمون من الاشياء ماتعلمون . وهم بعد ذا يحاولون مايريدون ان يجعلوه حلالا ألا ترون كيف ينظرون الى النساء يجرون أذيالهن ويتهالكن فى مشياتهن وليس على وجوههن الا براقع تشف عما تعلوه . فهن حاسرات مقنعات ولكن لايعارض فى ذلك معارض ويرون الناس يأتون من الموبقات ماتندى له الجباه وتحمر الوجوه فلا يعارضونهم ولكن ويل لمن وضع

على رأسه قبعة واجتاز طريقا ومنهم من يقول الربا حرام وأوقاف الاستانه فى زمان الاستبداد كانت تقرض المال بالربا فتهب الرجل قدر حاجته من القرض وتجعل الربح ثمن مصحف يشتريه من الولى ثم يهبه اياه . وانتم تعلمون الحيل الشرعية وما يأتيه أكثر الناس من المتمسكين بالدين

قلنا — هذا كلام لم نسمعه من غيرك من رجال الدين ولكن هل نتكلم مع اخوانك الفقهاء فى مثل هذا الباب

قال — هذا صعب . وأخشى ان استثير غضبهم فيصيبنى منهم أذى كبير . وهل فيهم من يجهل شيئا مما ذكرت لكم ولكنهم متعصبون والمتعصبون لاتجدى معهم المناظرة ولا يقنعهم الدليل

قلنا وكيف الخلاص من هذه العادات التى أثقلت أعناقنا واطالت شقاءنا . وكلما هممنا بالفوز فى معترك الحياة تكاثرت علينا جموع التعصب فانقلبنا مخذولين مدحورين

قال — عليكم ان تشكوا الى الشعب استبداد رجال التعصب ولكن بعد ان تعلموا الشعب أو تكثروا فيه عدد المتعلمين وانا لى فى بيتى مكان يحضر كل جمعة اناس يستمعون دروسى وهم قليلون ولكنهم مستمرون على الحضور ولا أقرأ لهم الا مايفتح اذهانهم وينير عقولهم. ولما بلغ الى هذا الموضع من كلامه نظر فى ساعته ونهض واقفا واستأذننا فى الانصراف فودعناه آسفين

فلما ولى قلنا لصاحبنا ولم يذهب معه . على من قرأ هذا الاستاذ

قال — على مشايخ قرأ عليهم غيره

قلنا — ومن اين له هذه الحرية

قال — الحرية طبع لاتطبع

ثم سألنا صاحبنا ان لايبخل به عاينا كلما وجد سبيلاً اليه فوعدنا ذلك وما مضى على مجلسنا هذا شهر الا تمزق شمله فنفى أكثرناوهرب بعضنا وبلغنا بعد ذلك ان هذا الفقيه سجن بالاستانة ومات مسجوناً رحمة الله عليه

الكهول والشباب

عصرنا عصر الشباب . دالت دولة الكهول ومضت تتعثر بازيال جدودها المولية . فويل للعابد فى صومعته وويل للواعظ فى بهرة حلقته وبعد فما هنالك الا كما قال ابن بحر شق مائل ولعاب سائل . وهذا أوان التجديد لكل سؤدد فيه سبيل : السابحات فى البحار والمحلقات فى السماء . رناقلات الاصوات بين متباعدات الفجاج . فمن كان له فوق هامات النجوم مطلب سما اليه ومن كان له تحت مركز الارض مرام هبط عليه . اهلا بك يا ابا العشرين ومبتدأ الحق ومستهل المجد

قال لى قائل : كل هذه زخارف باطلة تأتى فتستضحك وتولى فتبكى واقد كنا اسعد منكم حالا وأهدأ بالا . كان يخرج الواحد منا فى جماعة من أصحابه . يتقدمهم الخدم . بايديهم الفوانيس وفى يده عصاه مذهبة القبضة مفضضة الكعب كأنها قضيب الملك فيغشى دار صاحب له رحبة القاعات . على حيطانها التصاوير وامامهم فوارة يرى ماؤها كرمح من البلور . فاذا جلس فى صحبه جئ له بالشبكات مملوءة من التبغ بكل زكى الرائحة كالعنبر . فمن صورى ومن جبلى . وتدار عليهم القهوة فى اباريق من الفضة وطاسات مثلها ممزوجة عنبراً . يوقد لهم العود فيفوح عبيره تعبق به جسومهم . كذا يقضون أوقاتهم مستمعين سير الاولين ممن اتقوا وعملوا صالحا . وانتم يا ابناء الجدة ماتصنعون ؟ تتوافدون الى الحانات والنوادى تنغمسون فى الملاهى وتذهلون عن

مشاغلكم بلذاتكم وتفخرون بعد ذلك علينا بهذه الجبال الحديدية التى تدب فوق أرضكم وتهز أركان بيوتكم . تحسبونها تغنيكم ولن تغنيكم شيئاً

قلت . — على رسلك أيها الشيخ . انت تنظر ولا ترى كنت أحسبك فى بعدك أعقل منك فى قربك . فاى فخر تريد ان تجاذبنا طرفيه واى مجد سبقتنا فى لذاتك اليه وقصرنا عن مباراتكم فيه ؟ تلك المجالس التى حفلت بكم اخلت أمثالها من ورثتكم . فلا تلومونا ولا نلمكم . كل عصر له دولته ورجاله فان ساءتكم هذه الركائب الحديدية فما زالت العيس تستولد وان راعكم ماترون من زخرف فما خلق الله الجفون الا لتغض دون ماتكره وتفتح لما تحب . ونحن وان كثرت فى قلوبنا شواغلها لا نزال نطلب لكم من الحياة المزيد ومن السعد المستمر . ولكنكم تنظرون مالنا فتودون لو يكون لكم وتحسون مابكم فتتمنون لو يصح بنا وفى التمنى من البطل ماينسى فضل تسليته الحزين

هذا مابيننا وبين أهل القرون الاولى وان انا الا من تابعيهم فاذا لم يكن ابن الستين كهلا يكون ماذا ؟ غير انى من أوائل من فتحوا باب الجدة لاهل النشاة المحدثة . فسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا

هاتوا رجلا ممن سكنوا البادية واجعلوه فى قصر الاليزة ودعوه حتى يسكن روعه وتثوب اليه نفسه ثم سلوه ماذا يرى ثقوا انه لا يجد من الدعة مايجد فى بيت من الشعر فاذا دنت منه احدى عقائل باريس فى حسن منظرها وكأسها الطيف لطفا والاثمل بهجة قال لها انت فداء سليمى فى برقعها وفى خمارها يجرر نصيفها وتتهادى فى دمالجها

وخلاخلها واساورها

للنعيم قلوب وللشظف قلوب وليس للحسن شكل معروف ولا هيأة خاصة ولا حال مستقلة به لكل ذوق حسن ولكل حسن ذوق . وانما اريد انآتى فى هذه السطور بعبرة احب ان يحتفظ بها من اعتبر فان من اشد الظلم ان يتحكم الوالد فى ابنه وان يربيه على قديم زمانه ويأبى ان يجهزه لجديده وقد فاته انه يظلم ابنه ويظلم من خلق ليعاشرهم والاخلاق والعادات كالملابس والازياء فاذا سمح ابن العصر الجديد ان يرتدى اردية اهل الوبر فكيف يحمل به ان يعيش بعقولهم

كان لى صديق استحدثته فى احدى ولايات الانضول خلق ذكيا وترك لذكائه الذى خلق معه فلم يزد عليه شيئا . كان اذا وصفت له عواصم اوروبا كلندن ونيويورك وباريس وبرلين وغيرها وذكر لديه ما بها من معجزات الحضارة وعجائبها . فترت نواجذه ضحكا وظن ماقيل له مبالغة وعلوا . وطالما رد على من يخبرونه بتلك الاخبار بانها مخترعة لا حقيقة لها ولا اثر . وكان لصديقى هذا ولد هو اكبر اولاده يحبه ويدلله . ولقد ادى به فرط الدلال الى ترك المدرسة فذهب الى احدى دوائر الحكومة وطلب قبوله فيها ريثما يتعود اعمالها . فقبلوه . ولما اتصل ذلك بابيه طابت له نفسه وقرت عينه وجاء يسألنى رايى فى ذلك

فقلت له : — ابنك اساء وانت جاريته فيما اساء

قال : — ولم ذلك . والآن لا اخاف عليه الحاجة وما امامه الا سلم الارتقاء يقطع درجاته ولا يلبث ان يصبح من الوزراء او الامراء ولنا ارض كثيرة جم خصبها غزير ماؤها . غدا تفيض خيراتها عليه وعلى اخوته

مشاغلكم بلذاتكم وتفخرون بعد ذلك علينا بهذه الجبال الحديدية التى تدب فوق أرضكم وتهز أركان بيوتكم . تحسبونها تغنيكم ولن تغنيكم شيئاً

قلت . — على رسلك أيها الشيخ . انت تنظر ولا ترى كنت أحسبك فى بعدك أعقل منك فى قربك . فاى فخر تريد ان تجاذبنا طرفيه واى مجد سبقتنا فى لذاتك اليه وقصرنا عن مباراتكم فيه ؟ تلك المجالس التى حفلت بكم اخلت أمثالها من ورثتكم . فلا تلومونا ولا نلكم . كل عصر له دولته ورجاله فان ساءتكم هذه الركائب الحديدية فما زالت العيس تستولد وان راعكم ماترون من زخرف فما خلق الله الجفون الا لتغض دون ماتكره وتفتح لما تحب . ونحن وان كثرت فى قلوبنا شواغلها لا نزال نطلب لكم من الحياة المزيد ومن السعد المستمر . ولكنكم تنظرون مالنا فتودون لو يكون لكم وتحسون مابكم فتتمنون لو يمنح بنا وفى التمنى من البطل ماينسى فضل تسليته الحزين

هذا مابيننا وبين أهل القرون الاولى وان انا الا من تابعيهم فاذا لم يكن ابن الستين كهلا يكون ماذا ؟ غير انى من أوائل من فتحوا باب الجدة لاهل النشأة المحدثة . فسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا

هاتوا رجلا ممن سكنوا البادية واجعلوه فى قصر الاليزة ودعوه حتى يسكن روعه وتثوب اليه نفسه ثم سلوه ماذا يرى تقوا انه لا يجد من الدعة مايجد فى بيت من الشعر فاذا دنت منه احدى عقائل باريس فى حسن منظرها وكأسها الطيف لطفا والأمل بهجة قال لها انت فداء سليمى فى برقعها وفى خمارها يجرر نصيفها وتتهادى فى دمالجها

وخلاخلها واساورها

للنعيم قلوب وللشظف قلوب وليس للحسن شكل معروف ولا هيأة خاصة ولا حال مستقلة به لكل ذوق حسن ولكل حسن ذوق . وانما اريد انآتى فى هذه السطور بعبرة احب ان يحتفظ بها من اعتبر فان من اشد الظلم ان يتحكم الوالد فى ابنه وان يربيه على قديم زمانه ويأبى ان يجهزه لجديده وقد فاته انه يظلم ابنه ويظلم من خلق ليعاشرهم والاخلاق والعادات كالملابس والازياء فاذا سمح ابن العصر الجديد ان يرتدى اردية اهل الوبر فكيف يحمل به ان يعيش بعقولهم

كان لى صديق استحدثته فى احدى ولايات الانضول خلق ذكيا وترك لذكائه الذى خلق معه فلم يزد عليه شيئا . كان اذا وصفت له عواصم اوروبا كلندن ونيويورك وباريس وبرلين وغيرها وذكر لديه ما بها من معجزات الحضارة وعجائبها . فترت نواجذه ضحكا وظن ماقيل له مبالغة وعلوا . وطالما رد على من يخبرونه بتلك الاخبار بانها مخترعة لا حقيقة لها ولا اثر . وكان لصديقى هذا ولد هو اكبر اولاده يحبه ويدلله . ولقد ادى به فرط الدلال الى ترك المدرسة فذهب الى احدى دوائر الحكومة وطلب قبوله فيها ريثما يتعود اعمالها . فقبلوه . ولما اتصل ذلك بابيه طابت له نفسه وقرت عينه وجاء يسألنى رايى فى ذلك

فقلت له : — ابنك اساء وانت جاريته فيما اساء

قال : — ولم ذلك . والآن لا اخاف عليه الحاجة وما امامه الا سلم الارتقاء يقطع درجاته ولا يلبث ان يصبح من الوزراء او الامراء ولنا ارض كثيرة جم خصبها غزير ماؤها . غدا تفيض خيراتها عليه وعلى اخوته

قلت — : هذا لا يركن اليه ولبيت من ورق اللعب أحكم منه أسا وابقى على مر الحدثان . وقلت الثراء والجاه وكل شئ فى ساعة يقضيها امام الاستاذ

قال . — ها انت موجود علمه اللغة العربية وحفظه اخبار الاوائل وروده الشعر وهذا يكفيه

قلت : — كيف تريد أن يتعلم العربية بعد هذا العمر وانا لا ادعى العلم بها وقد تجاوزت الستين !! ! وهب انه فاق فيها الاوائل والاواخر أيكون ذلك مغنياً له عن سواه ؟ روض بالعلوم العصرية نفسه وذوقه طعم الحضارة ومل به عن هذه العادات والنحل . فاصر الوالد على عناده وترك ولده وشأنه . فكان يمشى فى المدينة حاملا مسدسه معوجا طربوشه مشيرا بذراعيه

فلما نال العثمانيون الدستور وذهب زمان الاستبداد قابل جماعة من رجال الامن ابن ذلك الصديق ليلا وهو يتمايل سكرا فارادوا أخذه الى منزل أبيه فاجابهم برميات من مسدسه جرحت احد أولئك الرجال وكادت تذهب بحياته فاخذ الى السجن قسرا ولم يرض ان يؤخذ الى دار ابيه طوعا وانطلق ابوه يرجو الناس ان يفكوا له ابنه من وثاقه فلم يجد الرجاء . فلما استوفى مدته خرج صاغرا ممتهنا . فتوعد اباه بالقتل ان لم يعطه ما يريد من المال وبقى ابوه فى بيته لا يوطأ له بساط ولا يقرع باب . ولقد رآه بعض الناس ذات يوم ماشيا على قدميه وفى يده عريضة يطلب فيها الى الحكومة ان تقيله من بعض ما لها عليه من المال . فقال له من التقى به

— اين العربة ياسعادة الامير . كيف يخرج مثلك ماشياً فى هذا الوحل تحت هذه الامطار

— العربة باعها ابنى ورهن ضياعى وهرب وتركنى لا ادرى ايا عصفت به الرياح

ليلة القدر

اذا جاء اليوم السابع والعشرون من شهر رمضان تزاحم الناس على الجوامع . فاذا قضوا صلاتهم جلسوا الى حلقات يستمعون الاذكار ويكررون التسبيح ويبتهلون بالدعوات فاذا فرغوا من ذلك عادوا الى بيوتهم فصعدوا السطوح وفرشوا أرضها بالبساط وجلسوا يرتقبون ليلة القدر

— وما ادراك ما ليلة القدر ؟

— ليلة القدر خير من الف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر . سلام هي حتى مطلع الفجر

يقولون ان ابواب السماء تفتح ثلاث مرات متتابعات . في ساعة من ساعات ذلك الليل . لا يعرفها احد ولا ينتبه لها الا من اراد الله له الخير . وتكون كل فتحة كالبارق اذا ومض فينبغي على العاقل ان يدعو بما قل لفظه وكثر معناه . وان يجعل دعاءه ثلاث جمل متتابعة . فيقول عند الوميض الاول اللهم هبني مالا لا يعد . وعند الوميض الثاني : وكلمة لا ترد . وعند الوميض الثالث : وادخلني الجنة بغير حساب

هذا لعمر الله التلغراف اللاسلكي الرباني يراسل به عباده كل عام في ثلاث ثوان . ولقد روى لي رواية وعهدة الرواية عليه ان عجوزاً رأت الوميض الاخير وقد خرق الفقر اطمارها حتى اصبحت كنسج الغرابيل فغلبت عليها القناعة . فقالت في دعائها . اللهم سد خروقي كلها . فلما اصبحت رآها الناس وقد مسحت عيناها وسد فمها ومنخرها واذناها

سدا محكماً فاتت محبوكة الاطراف طامسة الشكل . رحمة الله عليها

ورآى آخر ليلة القدر . وكان الشيب أنبت بشعره فقال اللهم اجعل بياضي سواداً . فما أصبح الا وكله سواد يسعى في أديم لو كان ليلة القدر لما تألق فيه بأوراقها

وكان رجل لا يرزق ذرية فقال : اللهم املا بيتي صغاراً فانتبه في الغد على صياح ملا بيته حتى أن ظن الحيطان تتصايح . فاذا هو بنحو الخمسين صبيا لا يزيد طول واحدهم على الشبر يجاذبون امرأته ويتواثبون على سريره هذا يقول ابي وذاك يصيح أمي وكلما حاول مع امرأته الهرب حالوا بينهما وبين الباب فرأت المرأة ان تأتيهم بشيء من اللبن في وعاء كبير لتقسمه بينهم . فوثب بعضهم في الوعاء فغرق فيه . فعلا بكاء الآخرين . فلما ضاقت الحيل بالرجل وامرأته رميا بانفسهما من كوة تطل على الطريق وارسلا ساقيهما للريح فراراً

لما كنت صغيرا كنت أجلس الى بعض الشيوخ فيقصون على هذه النوادر وانا أكاد اموت ضحكا . ولقد قلت ذات يوم لرجل منهم : تعالى الله عما تقولون . أيكون الحكيم العادل . يعلم ما تخفي الصدور ثم يفهم الدعاء كما يفهمه عبد الحميد . فضحك الرجل حتى سال لعابه على لحيته

وكانت عندنا قهرمانة عجوز طبعت على الوشاية وسوء الخلق . فما ترى منا شيئا مما يتلهى به الشبان الا وشت بنا الى ابي فينالني من تأنيبه وغضبه ما ينغص حياتي . فلما كانت ليلة القدر وكنت على موعد من رفاق لي لنقضي هزيعا من الليل في أنس رتبناه ورأيت تلك العجوز لا تفارق خطاي دفعت اليها تقويما كان معي وقلت : هذا دعاء ليلة

القدر . حسب المرء ان يجعله على صدره وان يجلس على السطوح رافعاً وجهه الى السماء فلايلبث ان يرى بارق القدر. فأخذت التقويم منى جذبا وضمت فى صدرها ضحكا كقعقعة الطاحون . واقامت ترقب البارق واقمت اجتلى المسرة فى صحبي

آه ما اكثر اختلافات الاهواء . لو علمت ان يستجاب دعائى لقلت: يارب « امح الغضب من القلوب . واجعل الناس اخوانا . واحبس الستة الادعياء عن الشعر والبيان » هذه ثلاثة اتمناها ولى من الحظ ما قدر فكان

تفتأ هذه الاوهام ربى فى أعشاشها فتدرج منها لتأوى الى عقول تخاذلت من فتحها جنود العلم ويدوم هذا العصر فى معجزاته يبهر الابصار ولا يلامس البصائر . فكم من حكيم يأتيك باللباب من حكمته فتزوى عنه وجهك وتهبه اعراضا ويجد المعمم ذو الاظافر الزرق واللحيه المنتفشة فؤادك ادنى لى غيه من فؤاده فيأتيك فى شملته يجر فضول ردائه فيستطعمك ثم يمد اليك يديه لتقبلها

بلغنى ان شيخا من اهل الزهد صعد على احدى المنارات فى ليلة القدر وأخذ فى الدعاء والتسبيح فغلب عليه النوم فرأى فى منامه كأن السماء انشقت عن نور ملأ الآفاق يبهر الانظار . فنزلت الملائكة فى اجنحتها الخضر ترفرف بها على رؤوس الناس . والناس ما بين ساجد وراكع مبتهل فأخذ الشيخ فى الدعاء فقال :

— اللهم انزل على فتاة تكون حرة العشاق وحرقة القلوب اذا دنت ملأت العين نورا واذا نأت اودعت الفؤاد كمداً . فما تم دعاءه الا وهبطت عليه فتاة هى أجمل مما طلب فمد اليها يمينه ليعانقها ويضمها الى

صدره فما راعه الا صوت كف رن على صدغه الايمن جاوبه مثله على الايسر فانتبه مذعوراً فاذا المؤذن امامه يقول له :

ايها الشيخ الصاقع . الا تستحى ؟ اتيت لاؤذن الفجر فرأيتك مضطجعا فانحنيت لارى ما بك واذا بك تفتح ذراعيك لتضمنى اليك وانا رجل لا يمزح مع مثلى . فخجل الرجل وايقن ان الله لا يستجيب لمثله دعاء

الشقاق

تركي ينادى اخوانه العرب :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا لا تطمعوا ان تهينونا ونكرمكم وان نكف الاذى عنكم وتأذونا

الآن لما امال الله عمود الظلم واعتدل الحكم فى نصابه يبرز لنا من مكان الفتنة من تساوى لديه حاضر وماض اين كانت نخوتك بالامس ايها الناطق المرقش عنا ؟

قال الداماد فريد باشا كلاما انطقه به اتصاله بالاسرة الحاكمة اراد تقربا بغير الانصاف ففعل . كذلك من اتوا الجاه ونالوا الرفعة من غير كد . ونحن ما ذنبنا حتى نشتم وماذا جنينا فنؤاخذ عليه

ابدا نراع بصيحات . تكسر النصال على النصال . تزجى الينا كل داهية ناد . اختلفت النقرات والغناء واحد . يشكون الترك يذمون الترك . عفى الله عنهم ماذا لهم عند الترك ؟

رأيت فى مقطم امس مقالة مذيلة باسم عزت الجندى . جعلها من صدره بمكان القلادة . هذه احدى نافثات السمام . بلى هى احدى المفرقات . اخال مقطمنا ذكرها ليذكر هذه التى اخط خططها واجزع انماطها . حبذا المنبر يتبارى عليه خطباء الاقوام . لاثار الله من خانته مواقفه منا

بى شجون وكنت فى حاجة الافصاح ومن جاش حميه وغلى مرجله استطاب المقال . فاجملى ايتها النفس صبرا عسى تنجلى غمامة هذا

العارض المتألق عن صيب يدع الغدران مترعة ويسقى عطاش القيعان

شهد الله وكل عثمانى حر يكون قرأ لى شيئا انى لا اتعصب للدين ولا للجنس : انا تركى وابغض عباد الله الى تركى يعتدى . احب العناصر العثمانية كلها وآخذ بناصر المستضعف منها . أحب العرب حباً خالط الروح وجرى مجرى الدم من العروق وأنا عربى الادب والقلم عربى النزعة ومن ابغض العرب فانا مبغضه . اولئك اخوانى الذين اغنيهم فيطربون واحدثهم فيقبلون على بالسمع . هكذا عهد العرب الكرام باخيهم هذا

غير أنى لا اكذبهم . انى كذلك لا أحب من يسب الترك ولا بد من يكون لهم عدوا كذلك العرب لا يحبون من لا يحب اخوانهم . واذا جرى بين العرب والترك شراً . اكون يومئذ بمعزل عن كليهما داعياً عليهما بالفشل معا

وانى لا انكر ان فى الترك أناسا يبغضون العرب وانى لا اجهل ان فى العرب رجالا يبغضون الترك . كل امة بها سفهاء ولا تكون امة بأسرها سفيهة ابدا . وعقلاء الأمتين متفقون على ود لا يتطرقه تغير على توالى الاعصار

زعم عزت الجندى ان الذين خانو الدولة هم اتراك ثم ذكر رجالا منهم محمد على الاول مؤسس الاسرة الخديوية بمصر . سامحه الله . ان محمد على خالى . جدتى شقيقته . لا تصح شهادتى له . فانا ادع الحكم فى خيانته ووفائه لاهل الانصاف

ولكن مصطفى فاضل قائد كتائب الحرية ومدحت ابا الدستور تركيان . الصقوللى والكوبريلى أيضا تركيان وغير هؤلاء كثير اذا

شاء الجندى ذكرت له اسماءهم وعددت ما تيسر من اعمالهم

وما لنا والفخر بمن ماتوا . نحن فى حاجة الى العمل ولسنا فى حاجة الى القول . فلينكر على الترك ما شاء وليتهمهم بما شاء . كل ذلك لا يخرجهم من العثمانية ومن حق العثمانية ان يكون كل ابنائها اخوانا لا متغايرين ولا متحاقدين

أرنى ايها الكاتب الجامح قلمه تركيا يرمى العرب بمثل ما رميتنا انت به وانظر ما اقول له . انى الين لك المقال لا اكراما لك ولكن جريا على آدابى وآدابى عربية . ثم اخشى ان يقول اخوانى العرب ان ولى الدين متعصب وان تذهب عنى ثقتهم وهى لعمرى ثقة أغلى على من حياتى

لك ان تلوم الترك ولك ان تغضبهم اذا شئت ولكن ليس لك ان تسبهم . هذا عيب لا أرضاه لعثمانى فى الوجود

اذا قرأ كلامك هذا احد جهلاء الترك ورد عليك بما يمس به قومك وتعاظم الشر بين الترك والعرب وتساقوا كؤوس الموت وخلت الديار وجرت الدماء . أتكون افدت بلادك أم تكون نفعت العثمانية . اذا تغلب العرب على الترك أو فاز الترك على العرب كان الخطب واحدا . ما فى المصيبتين واحدة تفضل الاخرى . فماذا تبتغى بهجرك !

آلمت قلوبا آلمها الزمان بحوادثه . أنا ما رضيت النفى سبع سنين ولا زرت السجن بين الاسنة من اجل الترك وحدهم بل من اجل العثمانيين . ولا امسكت هذا اليراع منازلا كل معاند الا محبة فى العثمانيين . ولكنى رميت فى قومى بما لم أؤمل وجاءت نفمتك هذه كالملح على الجراح . ولو استبقيت مثل هذه القلب لاستبقيت ودا جميلا

كفى كفى ان . كانت هـذه الحوادث لا تعظنا أن نكون من الجاهلين فقد اضمرت الايام لنا ما اضمرت فاكتب ايها الكاتب . ولو ذات سوار لطمتنى . ما انت بالحكم الترضى حكومته

ان كان منزلتى فى الحب عنـدكم ما قد رأيت فقدضيعت أيامى

هذا ما استطعت أن اكتب بيد راجفة وفكر شتيت . اما الداماد فسيكون لي معـه كلام طويل فلينتظره على مقعده الوثير وفى جاهه العريض . ان فى بعض الوعد معانى الوعيد

مقتل فرر

هن ثلاث رصاصات رميت باسبانيا فجاوبت دويها بلاد الله فى اوروبا وآسيا وأفرقيا . ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدينة بمشهد من حكومة متمدينة فقتلت رجلا متمدينا . حر أسقته حريته عارف اجهدته معرفته ومنصف اراده انصافه ذهبت خمسون سنة فى سبيل الخير فحال الشردون استمرارها . فلا السماء انشقت ولا نجومها تناثرت ولا الارض مادت ولا أوتادها قلعت ولكن هاج الانسان رحمةعلى ابن الانسان . لوقتل فرر قبل اليوم بعشرين سنة لما وجدعليه الناس هذا الوجد ولبقى الجزع فى قلوب من عرف حقيقته من بنى جنسه وقليل من غيرهم ولكن فرر آثر حب النوع على حب الجنس فكان أكثر الناس أحبه وأكثرهم نعاه

ابى زعامة الفرد على الجمع وكره ان يرى أناسا يرفلون فى ثيابهم المخملة يجررون اسيافهم . تخفق على رؤوسهم خرق فوق قضبان يسمونها اعلاما . ان تكثر حكومات الارض من جمع هؤلاء فى أزيائهم المضحكة لتقتل بهم امثالهم . انف أن يرى اخوته ابناء آدم يتنازعون اكناقا من الارض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس . سئم أن تشاد البنايات الشاهقة يفرغ عليها الذهب تزدان بالباهرمن الزخرف لتكون معابد يعبد فيها الله والله صاحبها من قبل ومن بعد

فما يجزع على فرر سكان القصور العالية ولا المدخرون للذهب والفضة ولا سراة الاقوام ولا الوزراء ولا كبار الموظفين وانما يجزع

عليه المنفيون الى اقاصى سبيريا حين يعض الحديد على سواعدهم والمقيمون فى ظلمات السجون فى سائر أقطار الارض بل يبكى عليه من ذاقوا مرارة الظلم والاستبداد فى أسر المستبدين من الناس

الارمنى الذى قتل اقربوه فى مذابح الاناطول والترك الذى التى ذووه فى لجج البسفور والعامل فى اعماق الموانى محروما من نور الشمس ولطف الهواء والفقير الذى يحس بالفاقة ولا يتجاسر على شكايتها . كل يندب فرر كما كان يندبهم

مساكين انصار الاحرار . يريدون ان يخلصوا العباد من الظلم فيقعون هم تحت الظلم . اذا تعلموا فيعلمهم ينفعون الناس وان أثروا فعلى المتربين ينفقون من ذلك الثراء يتوجعون لاوجاع غيرهم ويرثون لشكاياتهم ولو شاءوا لعاشوا سعداء متمولين يمسون فى نعمة ويغدون فى أخرى . يورون لو يساوى الناس فى الحظ على قدر المستطاع وهم بعد ذلك يؤتى بهم الى أماكن القصاص فيقتلون تقتيلا

عجبا يسرح بازمير جاقيرجه لى وهو لص سارق قاتل متعمد اثيم تطلبه الحكومه بين الجذوع والصخور وفى الوديان وعلى الآكام وقد قتل اربعمائة نفس ونهب اكثر من اربعمائة الف جنيه واضرام المعامل والقرى وامكن شهواته من الارواح والاموال فيخلص واذا هو وقع غدا فى اسر القانون جوكم وجيء له بمحام ينكر على المحكمة آثامه وجناياته واذ جرح ضمدت جرحاته ليشفى ويسأل بعد شفائه عما جنت يداه ومثل فرر الذى اسس المدارس وأفاض الخير على بنى الانسان واحيا ميتة الآمال يحاكم سرا ويقتل جهرا ولا تجدى فى نجاته شفاعة الشفعاء

يرجع البطل المغوار من احدى غاراته يجرر وراءه الاسرى فى

الاغلال والاصفاد وجنوده يدفنون القتلى على ذرى الهضاب أو كثير ما يبقونها فى مستراد الضوارى ومهبط القشاعم فيدخل على رجل يتألق التاج على مفرقه ويهتز السرير بكبريائه فيقول : قلنا كذا ونهبنا كذا واحرقنا كذا فتفتر له نواجذه فرحا ويتخلل وجهه سرورا وتغدق عطاياه على القاتل الناهب المحرم ويقام له تمثال تخطب امامه الخطب وتنشد القصائد وتقام الافراح

النفوس التى تأوى الى هذا الجنوب تستطيب السيئات وتستكره الحسنات . . ما انقى سريرة الوليد الى حين يدرج من عش صباه . تبسامة تستضحكه وزحرة تستبكيه . فمثله كمثل البلبل اذا جاء الربيع وأورقت الاشجار وصوحت الازهار ومجت سحرة لعاب الندى وانسابت على اعطاف أماليدها خيوط الشعاع وأستمر الغدير فى خريره والنسيم فى هينمته داخله الطرب فصفر فى مهرجان الطبيعة ليطرب نواميسها واذا كان الشتاء وذبلت) الغصون وذوت الاوراق واكفهر وجه الافق انكمش البلبل فى عشه واقام فى بثه

الى الله اشكو مر ما يتجرعه الانسان . من الانسان . ملك كريم يصبح شيطانا رجيما . وما الملك بذلك الذى يتوهمونه أخضر الجناح بادى الشباب ريضة ولا الشيطان ذلك الذى يتخيلونه مشتعل الناظرتين دامى اللهارة والمناسر كلاهما خيال لا وجود له بحيث يظنون ان هما إلا بين الناس ومن الناس

اذهب يافرر الى حيث مصير العناصر ومأتاها . تلق سكونا لا تشوبه حركات الغوايات . رقدة هذه كلنا رقدها غدا . فاذا لاقيناك صافحناك وشكرناك واذا طال الثواء فى موطن الشقاء فسيأتيك منا السلام كل صباح ومساء

الغلو فى المدح ـ التذلل

الذى ينقصنا اكثر من الذى عندنا

غاظنى صديقى (نقاد) ولكن لا آخذه الله بجريرته ، سبقنى الى هذا الموضوع فأجاد وافاد . ولو كان يدرى ان اخاه زهيراً ورم انفه فى اعداده لتخطاه الى غيره . على انى لست مكرراً ما سبقنى اليه . فليطلب قراء المقطم نفسا . بلى ربما جئتهم من تجاربى باشياء تعظهم كما تفكههم

نحن الآن فى عصر دستورى . والدستور رأسه التساوى وركنه الحرية . ومتى تساوى الاحرار بطلت عادة التراجح فى الحقوق وبقيت عادة التراجح فى الاعمال . هذه قضية لا تنقض . وكل من حاول ان يقيم الدليل على بطلان حكم بديهى لم يزد على ان يضحك الناس من عقله

اما عصر الاستبداد الذى دالت دولته فعصر لا يقاس بغيره . كان أعجوبة فى كل شئ من أشيائه . خذ عقل أحد السوقة وتدرج فى مراتب العقول الى ان تنتهى الى عرش الملك فلن تجد فرقا فى الادراك . وكثيراً ما فضل السوقة اخوانهم الملوك . وان رجل يشمخ بانفه لمخمل يلبسه ساعتين ثم ينزعه ليبقى فى صندوقه طول أيام سنته لمرزأ فى عقله مظلوم من الطبيعة فى حصته من الادراك . واذا كان فضل المرء بلبوسه فان فى الحيوانات والطيور مالا يسمو الى جماله ملك من

الملوك أى قائد من قواد الجيوش فى ثيابه الذهبية وسيفه المرصع ووساماته المتلألئة يضارع الديك الهندى فى جمال عرفه وبهاء ريشه واختياله فى مشيته بل أيه ملكة تشبه الطاووس الا اذا شبهها به المتشبب فى بعض اشعاره ؟

وبعدفلا حجة لاهل القدم على أهل الجدة فى طلب التمسك بالعادات والنحل مثالب لاهلها

كانت جرائد الاستانة اذامدحت «سلطان البرين وخاقان البحرين» قالت : تنبت الارض ببركته وتمطر السماء بجوده وقالت احدى الجرائد سامحها الله : انه المقصود بخطاب لولاك لولاك لما خلقت الافلاك . وكانت تشبه عربته بالفلك . ومازاده ذلك الاغرورا وما زادنا الاويلا. ولقد بلغ الغلو بالقوم ان صاروا يكتبون مالامعنى له . حتى سألنى احد فضلاء الفرنسويين ان اترجم له جملة منها ليكتبها فى مؤلف له فلم استطع

وكذلك اعتاد الناس التذلل . فاذا قال أحدهم لكبير من الكبراء جئتك أوزرتك عدذلك من الذنوب التى لايتناولها الغفران وانما ينبغى ان يقول جئت لامرغ وجهى على تراب قدميك . ويقول بعضهم لبعض كانت جاريتك امرأتى وقال عبدك ابى وجاء مملوكك ولدى . ومثل هذا كثير لم يخطر على بال القائمين « بتصفية اللسان العثمانى » ان يزيلوه من اللسان والى هذا اشار ابو أدباء الاتراك وفخرهم المرحوم نامق كمال بك الشهير فى قصيدة له فقال :

خاكه يوزسور مكله قائسه يراوستنده حيات

اختيارايت التى خاكك حياتك رغمنه

ومعناه اذا كانت الحياة قائمة على الارض بتمريغ الوجه على التراب

فاختر ان تقيم تحت التراب وأنف الحياة راغم . ولكن نامق كمال كان عند لبيب ربيع مضى ومضى هو معه وقد اطربتنا أقواله ولكننا قصرنا فى أتباع رأيه

فاذا قيل لهؤلاء المتمسكين بالعادات السخيفة . مايعجبكم من هذه الاباطيل . قالوا هذه عاداتنا القديمة لايجمل بنا النزوع عنها . والامم الغربية وهى سابقتنا الى الحضارة لاتزال محتفظة على قديمها فكيف نغير نحن ماعاش عليه الاجداد وماتوا ؟ وقد فاتهم ان الخطأ لايقاس عليه . وان من حقنا ان نقلد أهل الغرب فى الحسن دون القبيح . ولقد كان العرب فى الجاهلية يئدون بناتهم انفة ولكن هذه العادة ابطلها الاسلام ولا يليق بنا ان نجعل العصور كما يوافق عادتنا فذلك مالانستطيعه والاقرب ان نجعل العادات كما يوافق العصر

وقد رأيت فى جرائد الاستانة أشياء وددت لو تنزهت عنها . فهى لاتزال تغنى السلطان الدستورى غناء السلطان المستبد . وتقول ان اوراق كذا واللائحة الفلانية عرضت على الاعتاب . وسلطانها الدستورى لايرضى بذلك . فان عد هذا ثناء فليس هذا بثناء على شخص السلطان بل على اعتابه . ونحن ممن يحبون السلطان ولاشأن لنا مع اعتابه ولانعرفها الااذا قضى الله لنا ان نراه فنتخطاها كما يتخطاها الناس واوراق الدولة العثمانية لاتعرض على اعتاب السلطان بل تسلم الى يده الشريفة مع التعظيم

الحمد لله كثيراً . لنا مجلس امة ولنا دستور نأوى الى عدله ولنا جرائد تكتب ببعض الحرية ولكن ينقصنا كثير . ينقصنا علم لاتغلب عليه صور الاشياء دون حقائقها وأناس يقولون الحق ولايخافون عليه عقابا وينقصنا انصاف يدعنا نرضى بالحق وأن صغر مصدره ونأبى الباطل

وان عظم مورده وينقصنا صبر من عنده ضمير حر على ان يرى قادة الافكار يتكلمون بكلام الصبيان وينقصنا أقلام من الفولاذ وأنامل لا تكل ونفوس لا تمل لنحارب الجهل حتى نجليه عن موطن العلم

فلن يسر العثمانى ان يقول فيه الغربيون مايقول فى الامم المتوحشة وان تجعله الولايات المتحدة بمنزلة الاسيويين من سكان الجبال وأهل البرودون الزنوج وقد كنت أريد ان ارسل للقلم عنانه وأزيد أشياء ولكن سيبقى اليها صديقى «نقاد» ومن جعله الله بين أهل الفضل الذين تأتيهم شياطينهم بمخبآت الضمائر يبقى له من شوارد المعانى مالم يرضه السابقون

خليج البسفور

﴿ فى احدى ليالى الشتاء ﴾

الظلم له يد وليس له فؤاد . يغمد خنجراً من خناجره فى قلب من قلوب الناس فلا يستشعر لذلك الماء القتيل مضرجاً بدمه لديه كالحى مضمخا بطيبه . ظلمات الليالى وظلمات البحار وظلمات القبور . كل تستسر فى اثنائها بذور مطالعها الشباب ومنازلها الآمال . واذا كان لاهل الويل تراث فالمواعج التى تذكيها الذكر والحسرات التى تستديمها الصروف . اجسام مازهور الرياض ولا نيرات الآفاق ولا عقيان القلائد ولا جواهر التيجان باحسن منظراً . تربى متنقلة فى الدلال من حنو مرضعة الى غناه مربية الى ابتسامه الى مواصلة حبيت كل ذلك لمصرع لحظة يتلوها الفناء. ما اضيع الامل وما أعد القضاء

فى ليلة من ليالى الشتاء سكنت تحتها الاشياء وتحركت الضمائر سوداء الجلباب بيضاء الصقيع . طرقوا باب المظلوم فأطل عليهم . قال :

ـ من الطارق المنتاب ! قالوا

ـ اجب . شفيق يدعوك

فقام الى ثيابه فلبسها ومال الى أهله فودعهم وتوسط رسل البين وزبانية جهنم فاركبوه عربة طارت حتى وقفت بهم امام باب كبير . فمشى الرسل ومشى بينهم المظلوم . فادخل به على من وجه فى طلبه . فتقدم خطوات وسلم تسليم غير المشتاق ووقف ينتظر الجواب . هذا الموقف

مهيع من الحياة الى الموت . تعلل كل ثانية من ثوانيه نافع لمن ناله . رحمه الله ابي تمام اذ يقول :

ها أن هذا موقف الجازع اقوى وسؤر الزمن الفاجع

الطالب والمطلوب متوجهان . خصمان هذا سيفه سلطان وذاك درعه اساه . فلما استطال السكوت واستبطأ الشراسيره رفع شفيق رأسه ونظر الى غريمه نظرة ملؤها الختل ثم قال :

ـ الآن يذهبون بك الى (القصر) ولا أدرى عم يسألونك هنالك فكن رابط الجأش واحسن الجواب تلق خيراً

ثم أمر شفيق اثنين من الشرطة ان يركبا المظلوم عربة وان يمضيا معه ففعلا . فلما أوفوا على الشاطئ ألفوا زورقا فيه اناس بانتظارهم . فاركبوا الزورق وانطلق حتى رسابهم الى جانب سفينة كبيرة فصعدوا اليها . وجاؤا للمظلوم بكرسي فجلس عليه وناولوه سيكاره جعل يصعد دخانها وهو صامت ثم أقبل من البر زورق آخر فصعد منه جماعة منهم محمد على رئيس الهيئة التحقيقية اذ ذاك : فدنا من المظلوم وقال له :

ـ الآن صدرت الارادة السلطانية بالقائك فى البوسفور بذا قضى الله ولا مرد لقضائه فان كانت لك وصاة توصى بها من بعدك فهاتها . وان كانت نفسك تشتهى شيئاً مما يؤكل او يشرب فاقترح

قال لا أريد شيئاً . وانسابت من مقلتى الرجل شآبيب خضلت لحيته والناظرون اليه لا يبكون . هم يعجبون ان يجزع الناس لفراق الدنيا . شهدوا مصارع كثير من الخلائق وشهدوا جزعهم عند الموت . فاستضحكهم ذلك وقالوا : ما هؤلاء يخافون ما لا بد منه . وما تعجيله الا تعجيل أمر لا ريب فيه . يا حكماء الموت هذا عجب الخلى من حال

الشجى ولعل لكم فى ذمة الدهر مواقف مثل التى انتم لها شاهدون سكت المظلوم سكتة غلبه عليه فؤاده . وفى ثنيات الافق كواكب تنظر ولا تسعف . والريح بليلة الجناح واليم جائش الغوارب والبران فى بيوتهما المنيرة شاهدان ولكن لا ينطقان الشعراء يبكون بابياتهم والمظلوم ينشد دموعه . اى قصيدة الشجون . هذا الفراق

فرجى الخير وانتظرى ايابى اذا ماالقارظ العنزى آبا

لما جاءوا بالسلاسل فامروها على عنق المسكين واثقلوا رجليه بقطع الحديد واعادوا به الى الماء فغاب فى عبابه عرف هوان الحياة وكيف تجنى الوالدات على من ولد والى اية غاية يكون المصير . . . .

قالت جرائد الاستانة الصادرة فى . . .

عثر رجال الشرطة على جسد رجل بشاطئ البحر قد تشوه وجهه وتمزقت ملابسه وأعضاؤه فلم يمكن أن يعرفوا من هو ولكنهم رأوا فى ملابسه خاتمه المنقوش عليه اسمه فاذاهو اللواء . . . . وظهر ان بعض اعدائه الخائنين انفردوا به يوما فاغرقوه . وقد صدرت الادارة السلطانية بالجد فى طلب الجانين الذين اعتدوا على مثل هذا الفقيد الغالى ! ! ووعد من يعثر عليه ان يعطى جائزة سنية ويزاد راتبه وترفع رتبته

بين نوحات النائحات وبكاء الثاكلات سكوت يأتى به الاعياء وتقطع الانفاس . ذلك من الفواصل التى ينوب فيها القلب عن العين فتسكت الظواهر وتبكى السرائر . وقد وقع مثل هذا فى بيت الفقيد الغالى ! جاء رجل من القصر يحمل عطية . كلم الايم من وراء ستارها فقال

ـ أمير المؤمنين فى حزن عظيم على المرحوم ! فقد كان يحبه كثيراً : ! ! !

وهو يقول اذا ذهب حاميكم فانا حاميكم : وهذه هديته اليكم

فانطلقت الالسن بالدعاء من قلوب لايشوبها الرياء . . .

كان يخضعون الناس فيسرقون منهم الدعوات ويريدون ان يخدعوك يارب ليتخلصوا منك الرحمة والرضوان

اكذوبة ابريل واكذوبة رمضان

تعود الغربيون ان يكذب بعضهم على بعض فى اليوم الاول من شهر ابريل وهو كذب ليس وراءه نفع ولايختارونه خصيصة من شر وما يريدون بذلك الامداعبة ومزاحا . على اننى لاأعلم ممن تورثوا هذه العادة ولا كيف انتهت اليهم وبقيت الى زماننا الذى طوى عجائب القدماء وا كثر حماقاتهم : هذه غوايات اقلع عنها أهل الوقار من الغربيين ولم يستمر على ضلالها غير فئة قليلة من العامة ولاحداث

وانى لأكاد اذهب فى تعليل هذا الكذب مذهباً لاادرى أهو الحق ام ظن انا أظنه وحدى . اخال ان أهل الغرب لما علموا ان الكذب عيب من العيوب التى لاتواطن المرؤة فى قلب انفوا تعوده وحرموه فى ايمانهم واذا كانت النفوس مفطورة على البسط بما هو محظور رأوا أن يجعلوا لهم يوما يكذبون فيه لكى ينيلوا الانفس مشتهاها وعلى هذا جرى أهل النسك وعبادة فى كل دين . فان الصائمين الذين عافوا مايلذ فى افواههم واستعاضوا عنها بلذات النفوس يغيرون عاداتهم ويبدلونها احيانا . فاذا كان وقت الافطار جاءوا بمالذ وطاب من مأكل ومشرب وزينوا موائدهم بانواع الفاكهة والنقل

اما رمضان فله أكذوبة يتخذها اكثر المرزئين فى زمهم . فلقد يهون عليهم ان يكذبوا ولايهون عليهم أن يقولوا نحن مفطرون . يملاون بطونهم

فى بيوتهم ويخرجون الى الاسواق بايديهم المسابح من اجود المرجان والكهرباء (الكهرمان) ومن البلور ومن العود ومن العنبر يلوحون بها اذا أشاروا . ومنهم من يتبهرك اذا دانيته وفى يدك سيكارة ويقول لك . اذا كنت لاتؤمن فدع من يؤمنون يعبدون ربهم ولا تكدر عليهم صفو العباده . واذا ساوم احدا على شئ يريد أن يشتريه منه عاملا صياحه وزرق وجهه وحملق بعينيه وجعل يقول له هذا يوم صوم وأنا رجل يجهدنى الامساك عن القهوة والدخان فاذا زين لك الشيطان أن تملأ رأسى بكثرة كلامك ضربت بك الارض وأنزلت عليك المصائب

مالك ياأخا الزهد تزهق الارواح وتستنفد الصبر ومالنا نحن وزهدك . سواء علينا طرت به حتى جعلت اخصيك على هامة زحل امهويت به الى حيث يهوى الكاذبون

فى البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون : كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر الى أن يأتى اليوم الثالث من عيد الفطر . وكان أكثر المفطرين يدعون الصوم ويحسنون تقليد الصائمين حتى لقد بلغ امر الكذب ان يضرب المفطر فى بيته من يدخن بجانبه سيكارته . وقد خرجت بهاذات يوم فى رمضان وراء امر عرض أريد قضاءه . فلما ركبت الترامواى رأيت جماعة من الاجانب على رؤسهم القبعات وبافواههم سيكاراتهم والناس ينظرون اليهم شزرا ولايقدر احدمنهم ان يخاطب اولئك الاجانب بكلمة تسؤهم وكانت علبة سيكاراتى معي . فنسيت ان اليوم من ايام رمضان . فأخرجت سيكارة جعلتها فى فمى واقمت انتظر ان يمد الى أحد الجالسين شيئا اشعلها به فشيت فى عيون الركب وجعل بعضهم يغمز بعضا مشيرا الى بلحظه : ففطنت لموضع خطئى وقلت اداويه

لكم أيها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكانى بغتة كمن تذكر شيئا كان نسيه وقلت : لعن الله الشيطان . كذب والله ادخن سيكارتى وأنقض صومى ونظرت الى رجل جالس على يمينى وقلت مؤنبا له : كذا ياأخى ترانى اهم بما يفسد على صومى ولا تنبهنى الى ما كاد يفرط منى عن غير عمد وأنت تعلم أن الدين يقضى علينا بالنصح لمن سها وان لا يعرض الا عمن تولى . فابتسمت الثغور وسرى عن القوم

ولقد دعانى وانا فى بلاد الاناضول احد الولاة الذين تفتخر بهم البلاد لافطر معه . فاجبت الدعوة فرحا باستماع حديثه والجلوس اليه . فدوى المدفع والمائدة كظهر السلحفاة مما عليها من الاطعمة والاوانى . فقال قائل : ارى زهيرا قليل الاكل كأن باضراسه فلولا . فتبسمت وقلت هذه الاضراس ارادها اخو ذبيان بقوله :

تورثن من ازمان يوم حليمة الى اليوم قد جربن كل التجارب

فلم يفهموا ماارادت . فشرحت لهم البيت وعرفتهم المراد ثم قلت : كان الاحسن ان اشير الى قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ولكن ابيت ان تشاركونى فى مجدى . فضحكوا . ثم قال لى الوالى بالله عليك يازهير الا ماصدقتنا . أنت صائم حقا ؟ فلت لا والله ولا صمت قبل اليوم فى حياتى فكاد الوالى ينفطر ضحكا . أما الحاضرون فبقوا واجمين كان قد صب على رؤوسهم طست فيه عشرون أقة من البترول فعلمت انى مغضبهم فى ليلتى . فلما انتهينا من الطعام وخرجنا الى المكان المعد للتدخين دنا منى احد المعممين وهو رجل كالجرادة له لحية كقائمة المزاد وعينان كزيتونتين . فنظر فى وجهى مليا ثم قال لى :

ـ لم لا تصوم !ـ لا ادرى ـ كيف لا تدرى :ـ ككل من لا يدرى

فغلب الضحك على الرجل وتنحيت انا جانباً لكى لا يطير فى وجهي رشاش من فيه . فقال : ـ مالك تنأى عني . اغول انا فتخافنى :

— كلا . بل فمك رائحته منتنة فلا اقدر ان اشمها

فوالله ما أمهلنى أن اتم كلامى بل ولى عنى غير ملتفت وراءه

ثم قص على الوالى ما وقع له معى . فقال له الوالى .

— اياك تحرك عليك لسانه . اما انه لينتزع السهم ويصيب المقتل

ولقد جاءنى رجل فى رجاء حسبنى محلا له وكنت اشرب قليلا من الماء فنسي رجاءه وجعل يعنفنى فلم املك الغضب . فقلت له : امن اجل هذا اتيت الساعة ايها الفضولى . اخرج والا رميت بك من اعلى السلم او اسفله . فخرج ثم عاد وهو يقول وعيناه مغرورقتان دموعا : جئتك راجيا فلا تخيب وابيك رجائى : فسمعت رجاءه وصرفته عنى واعداً اياه خيرا

وكان اكثر اصحابى من مستخدمى الحكومة يعرجون على داري يشربون فيها قهوتهم وسيكارتهم حتى لقد قلت لهم يوما : الحمد لله كثيرا . لقد جعلنى صاحب قهوة الكاذبين فنظروا الى وقالوا : اتق الله اما الآن فلا ادرى كيف حال الشبان . فى الاستانة . فقد اعلنت نظارة الداخلية بوجوب المبالغة فى حجاب السيدات المسلمات وتوعدت ذويهن بالعقاب اذا بدا منهن ما يخالف هذا الامر . والخبر اليقين عن المفرطين هو فى مطعم توقاتليان وبنى فى الاستانة . وفى مصر من الحرية الشخصية ما لا يضطر الى التوارى عن الابصار والاختفاء تحت الموائد ولكن فى الناس كثيرين يفعلون ذلك . ولو لا انى شاركت بعض الاجانب فى الكذب معهم فى اول شهر فبراير وذلك حين كنت ابن عشرين سنة . لجاريت اهل المسابح الى الكذب . غير انى جالس امام مكتبتى وعيناي شاخصتان الى ساعتى وقد دوى مدفع الظهر الذى افطر عليه

نشيد البلبل (١)

وفيما ذكر ان يفكر اذا صوت تسامى اليه فى سكون الليل . متنقلا على اثناء الظلم . أحسن ايقاع باشجى ترجيع . فكان البلبل البلبل والربيع . كالمغنى والمهرجان وانما يشتد تلازمهما في مآلف لا يتعديانها الى غيرها . وأحب تلك المآلف اليهما هى فروق

اذا تراءت الربى فى مجاسد الخصب وبدت أنماطها وحواشيها مطرزة ومعلمة . منمقة بمحاسن الزهر فى اختلاف أشكاله وألوانه . وارتفعت التلاع فى منخفض الوهاد كالمضارب . وصفت قبالتها طوائف السرح والسرو كالحواشي والجنود . أقبلت لتحتشد عند ملك عظيم . وانسلت الانهار فى الاودية كالزئبق وسرت النسائم بين الصدور والارجاء بزفير أو أريج . انطلق البلبل من عشه . وملأ الفضاء تطريبا

بالعشيات أو بالبكور . فى الروضة الغناء أو الوادى الممرع . على الاثلات أو تحت الشبائك . عند اعتلاق الانداء بالفضاء بين السماء والثرى جناحاه فى خفوق وسكون . وريشه فى تجعد واستواء . يتنقل بين الاوراق الخضر والاغصان الهيف راقصا معربدا كلما طرب لنغمته جاوبها مجاراة وكلما استنكر صوتا صمت عنه مداراة . وهو مع كل حالاته شاعر الطبيعة بديهاته طوعه وخواطره معه لا يتصنع ولا يتكلف . يقيم الاوزان ويسدد القوافى بغير كد وبغير تعنت . يترفع عن تمليق الملوك والزلفة عند الكرام . يندب ويتسبب ويبكى ويستبكى . غناه أنين وشعره روح

---

(١) للمرحوم ولى الدين بك يكن عن رواية وضعها وشرع بطبعها قبيل وفاته وذكران المذكور يطلها

ربيب الجمال وتبيعه يروى بماء المزن ويشمل بشذا ما تنشر الخمائل شجى معنى . تهيجه الذكرات وتميته الحسرات . حليف الوجد وهو أضعف المخلوقات عن حمله . يريك لسانا كريشة الكاتب . يقطر لوعة ويتحرك حزنا . وعينين مروعتين بحوادث الليالى تلمعان على أحسن رأس ركبت على أحسن عنق الى جثمان كالقلب بل هو أصغر وأوهن

ليت شعرى ما تضمنت تلك الضلوع الضعاف . وما يهيج تلك الروح المروعة

أكلف بالحرية ؟ أجل كلف بالحرية . هو مجنونها ومعذبها ومذلها بل هو على ضعفه وصغره بطلها . ما أودع قفصا الا ومات فيه غما أو انتحر يأسا يرنو الى ملك الله فى سعته ويتملى من محاسنه . بعيدا عنها . محجوزا دون الجولان بينها . فيفنيه ذلك أسى ولا يستشفى عنه بصبر ولا جلد . آه من البلبل وآه على البلبل

طاب لدكران السماع فاصغى مستمليا . وكان البلبل يردد صوتا كالصبا ينتهى من حيث يبتدىء لم يكدر وصفحة الأفق مجلوة كالغدير كواكبه طافية على مجرته كزهر البابونج والنسيم كانفاس العذارى طيب ندى : فكاد دكران يصيح من شدة طربه . ولقد كثر تعجبه من البلبل . كيف تخطى الحدائق المؤنقة والاضواح اليانعة وأتى شجرة واحدة فى زقاق ليس فيه شىء من البدائع التى يألفها . وكان يخيل الى دكران أو ذاك البلبل يطربه على تلك الشجرة . وما علم انه فى بيت بعض الجيرة فى قفص مزين قد نسى على الشباك . وانه لما رأى رقة أديم الليل وخفة سريان النسيم وحلاوة تساقط الانداء وطيب شذا الثرى عاودته سجيته فأخذ يغرد

ولو كان دكران شاعرا لتفجرت ينابيع خواطره ولأتى بالكثير والطايب . ولكنه كان مستشعرا فقنع بان يحس وأن لا يقدر على تصوير مايحس فجعل ينشىء الخيالات

تارة يأتى بمريم فيلبسها، قميصها شفافا مماوى الزرقة يشف عن بياض صدرها وأكمامها يجلسها الى جانب حوض تتلاعب فى مائه الاسماك الحمر مظلل بعروش الكروم . تلتف حوله جداول الزهور فى سوسنها ونسرينها وزنبقها ووردها وقرنفلها وبنفسجها . فيجلس الى جانبها واضعا رأسه الى جانب رأسها فيتشاكيان ويتباكيان وهى جزلة بقربه . مغتبطة بحسن المكان وبهجته وبطيب الخلوة ولذتها . وآونة يأتى بخاله خاشادور وبامرأته فيقولان له . انا نضن بك على الهم والسقم . ونشفق أن تردى مريم بحبك . فلا تمنعك الخطوة بها . خذها فهى مالك وانت ابننا . وحينا يأتى بشبان يخطبون مريم الى أبيها . فيجود بها لاحسنهم وجها وأتمهم شكلا وأكملهم اشارة . هنالك تقوم القيامة على دكران فيهيم على وجهه فى البرارى والقفار . أو يلجأ الى كهف فى بعض الجبال فيقضى أيامه زاهدا فى أطايب الحياة معرضا عن سائر الناس . ومازال فى انشاء الخيالات والسير مع الاوهام . حتى سكت البلبل سكتة طويلة . فانتبه دكران من تأملاته واذا ساعة الكنيسة الكبرى تدق . فعد دقاتها فكانت أربعا ولاح من وراء الشباك أشفاف السحر . فتقدم دكران لينظر فرأى الكون كالكأس المقلوب . رقة وصفاء وقد برزت الطير من وكناتها . وللعصافير ارتفاعات ووقعات بين الجو والثرى . وللحياة انبعاث وللمشاغل تجدد

٣

الاستاذ

عباس محمود العقاد

الاستاذ العقاد

الاستاذ عباس محمود العقاد من نوابغ الطبقة الجديدة من الكتاب في مصر فهو من المطلعين على آداب الغرب وآداب العرب معاً وعلى كونه واسع الاطلاع ملماً بكثير من نتاج القرائح في العصور السالفة والمتأخرة فان له شخصية به لا يتنزل عنها في ما يكتب وله كذلك أسلوب خاص جامع بين المتانة والسلاسة

آثار أقلامه

الراحة

أبونا آدم رجل سبط القامة ، عريض الالواح ، جثل الشعر ، فى لون بشرته أدمة ، وعلى محياه سيماء الطيبة والسلامة ، ولنظراته دلائل الامانة والجهامة . ولم أدركه أنا ولكنى صادفته فى المنام ، وعرفنى به وحي الدم . والدم كما يقولون جذاب ، والعرق دساس . فلما صادفته ذكرت موجدة طالما وجدتها عليه كلما راجعت سيرته فى الجنة . فقلت له يا أبانا يغفر الله لك ! ما أقل ميراثك وأكثر وراثك ! ! أقطعوك الجنة بما رحبت فلا صنتها عليك ولا حفظتها لبنيك بعدك . ثم خرجت منها فما تزودت من ألطافها وأطايبها ولا احتقبت من تحفها وعجائبها عزاء لابنائك الضارسين بالحصرم الذى أكلت والمنغصين بالثمرة التى جنيت . وتركتهم فى ظلمات الحيات يعمهون ، وعلى وجه الارضين والبحار يخبطون ، فلا يهتدون . فهلا اذ كنت فى الفردوس كان لك بطيباته المحللة . غناء عن تلك الشجرة الممنوعة ! ! وهلا اذ أكلت منها تذكرت بنيك فقطفت لهم من ثمار الفردوس ما يتنسمون منه رائحة تلك الدار التى كنت فيها . ثم أورثتهم الحنين اليها وكان مطرقا وكانما هجت فى نفسه ذكرى منسية ، فاغرورقت عيناه بالدمع ورأيته يغالب نشيجه ويتنهد ثم مد الى يده وقال : قدك يابنى قدك (١) ! ! ولا تعجل باللوم على أبيك ، فو الله ما الزلة فى الاولى والاخرة الازلة أمكم

---

(١) قدك أى حسبك

حواء سامحها الله . وما نسيتكم علم الله يوم الخروج ، يوم المعصية والحرمان . اواه . وما كان أحلى تلك المعصية ثم ما كان أمر ذلك الحرمان . . . .

كنت أمشي فى ذلك اليوم وأتلفت أسفا على ما أودع ووجلا مما أنا قادم عليه . وكانت حواء تمشى الى جانبي ذاهلة مستعبرة . والنساء يابنى يفعلن الافاعيل وهن بعد لا يملكن فيها غير الذهول والبكاء . فبينا أنا أمشى واتعثر ، وابطئ الخطوة استزيد بها الدقائق ، وقد كان لنا ثم مقام الابد لولا ما فرطنا . . . اذ عاينت على قدى (١) خطوات جوهراً وهاجا قد صفت حوله الطير وحفت به الاملاك ، وهم ساهون عنه غير مقبلين عليه — ذلك جوهر الراحة يابنى ومن آفته أن من يحرزه لا يحس به ولا يقدر قيمته . فاوضعت اليه فالتقطته ولم يشعر بى أحد

قلت : واين ذلك الجوهر يا أبتاه !! أهو معك الآن ؟ ؟ قال : مهلا . انى خشيت أن أظهر حواء عليه فترز به كما قد رزأتنا بالنعيم كله . فسترته بيدى وما كادت تمس الارض قدمى حتى اسرعت فخبأته فى حرز حريز وقضيت وآسفاه ولم اطلع احدا من أبنائى على موضعه وهذا سر لا إخالكم وقفتم عليه . فلا غرو أن قام منكم فى الزمن الاخير من ينتسب الى القردة دونى ، ولا بدع أن تيأسوا من الجنة وتولوا بوجوهكم عنها . .

قلت : بل قد وقفوا عليه . ولا ادرى من اين . ودوا انك التقطت جوهرا من الجنة وأنه جوهر الراحة . فطفقوا يبحثون عنه

---

(١) أى مسافة

فى اليقظة والمنام وكلما ظنوا أنهم ثقفوه (١) اذا هم أبعد ما كانوا عنه — اذا التمسوة فى المجد فهناك البوار والعطب ، واذا ابتغوه فى الامل لم ينقض لهم أرب حتى يجد لهم أرب ، واذا أراعوه (٢) فى اللهو فعاقبته الندم ، أو نشدوه فى البطالة السأم . . . تائهين على غير هدى ضاربين فى مناكب الارض سدى يبدؤن ويعيدون ، ويعيدون ويبدؤن ؛ وهيهات ما يوعدون . أفلا كفيتهم الآن هذا المنصب ، وعوضتهم عما تجشموه من الكرب فى سالف الحقب ؟ ؟

قال : لا تطمعوا أن تجدوه حيث أنتم كادحون . فانما قد دفنته تحت التراب . فى مكان لا يراه من ينظر السماء ولا يرى السماء من ينزل اليه . . . ولكنكم متى حللتم جوف الارض واطرحتم كل أمر لكم فى ظهرها . فهنا لك الراحة السرمدية !!

---

(١) وجدوه (٢) أراغ الشئ طلبه

الغرور

دخلت على صديق لى أديب فسمعته يجادل رجلا أميا لم يغادر مسقط رأسه قط . وكانه كان يهمه ان يقنعه بضلاله ويؤنبه عليه فكان يخاطبه بلهجة بين الغضب والسخرية ويقول: أى شئ زين لك انك تفقه من هذه الشؤن ما لا أفقه وان لك فيها رأيا تعتد به فترجحه على الآراء كافة ؟ ؟

أبأن الله منحك من ذكاء القريحة ونفاذ البصيرة ما قد حرمته ، وما ادعيت من قبل ولا أدعى لك أحد انك من أرباب المواهب النادرة والافكار الخارقة ؟؟

أم بسعة اطلاع وغزارة علم وقد علم الناس وعلمت أنت انى تقلبت فى مجالس التربية من لدن نطقت بأولى كلماتى الى أن استغنى عن المسح شاربى (١) وطالعت من الكتب اضعاف زنتك ورقا وأنت لم تقرأ حرفا فى صحيفة ولا تفرق الى اليوم بين الالف والعصا ؟ ؟

أم باختبار الناس وممارسة الايام وأنت فى عقر دارك منذ ولدت لم تبرحها صباحا الا لتنكفئ اليها مساء ، واناقد ساريت الدهر وساريت النجم فقاسيت الغربة وكابدت المحنة وصحبت علية الناس وغوغاءهم، وبلوت كبراءهم وصغراءهم ، وزاولت كل عمل ، وطرقت كل باب فانكشف لى من عواهر الناس وبواطنهم مالو اننى لم اقرأ أبعده كلمة لكان حسبي

---

(١) قال أحد الاعراب فى ولد له عقه

وربيته حتى ذا ما تركته فتى الحرب واستغنى عن المسح شاربه
تعمد حقي ظالما ولوى يدى لوى يده الله الذى هو غالبه

وما لو أنه لم ينكشف لى لما كنت قد قصرت عن شأو انت ادركته ولا جهلت أمرا أنت حصلته ولم تجهله ؟ ؟

أم بالسن وأنت ندى ! أم بالوحى والالهام وقد انقضى عهد النبوة ، أم بالصدفة ولا حجة للصدفة ؟ ؟

قلت لعلى أجيبك عما يزين له ذلك . يزينه له الغرور الذى تمتلئ منه كل جانحة وتنبض به كل جارحة . ولولاه لمات أكثر الناس غما بقصور وحزنا وأسفا على عجزهم وتخلفهم . واذاكان لابد لكل انسان من أن يحب نفسه فلا بد له من أن يغتبط بها والا فقد عجز الانسان حتى عن حب نفسه لغير سبب . كما قدر الغرور على أن يخلق لكل انسان سبباً يرضيه عن نفسه

وأنت لو امكنك ان توفق انسانا ثم أمررت أمامه الثقلين جميعاً يقولون له انه اجهل الناس وأحقر الناس وشر الناس وأضعف الناس، ثم خلا ذلك الانسان بنفسه لامكنه أن يوهمها أنه أعلم الناس وأجل الناس وخير الناس وأقوى الناس . يكذب الناس كلهم ويصدق الغرور لان الغرور يقدر على أن يواسيه فيما يلبسه منه الناس ولا يقدر الناس ، على أن يعوضوه عما يسلبه منه الغرور

فان كان فقيرا علل نفسه بانه سليم الجسد موفور العرض أو بأنه لو أحصيت ديون الغنى وأمواله لكان هو أثرى منه مع الراحة من عنت الغرماء ، أو انه يدير ماله القليل بما يجعله أغنى من صاحب المال الكثير ، أو أن الله أخلف له فى ذريته ما انقص من رزقه ، وأنه يكسب قوته بعرق جبينه وكد يمينه، وذاك يكسبه من السحت والحرام ويبدده فى البذخ والآثام

وان كان جاهلا زعم انه ليس بالغبي ، ولو كان تعلم ما تعلمه العلماء لبذهم فى العقل ، وتقدمهم فى الفضل ، وانه على جهله يفهم بالبداهة ما لا يفهمه العلماء الا بالدرس واللجاجة

وان كان مهينا ذليلا قال مالى والرفعة والسناء ، والعزة القعساء ، أضيم الابرياء ، واعتو على الضعفاء ، وأورى بهم الحقد والبغضاء ، وما يتبعهما من سوء الثناء ، وأنصب (١) لما ليس يعنينى من الاشياء ، وأخدم المرؤسين وأنا احسبنى من الرؤساء ، ألست أنا فى هذه الدعة والرخاء ، أولى بالغبطة والخيلاء ، وأعز فى ذلتى وضرعى من الاعزاء؟؟

وان كان ناشئا حدثا والمنافسون من الكهول والشيوخ قال أجل ولكننى أعلق فى اليوم مالا يعلقونه فى الشهر وأفيد فى الشباب ما لا يفيدونه فى الهرم وأعى وأنا فى الدار مالا يعيه غيرى بعير الرحلات والاسفار ، والتجوال فى شواسع الاقطار وان كان ذميما اتهم المرآة ، أو مجرما سب القضاة ، أو بذيئا قال ما هذا بذاء . هذا مضاء أو بخيلا أو جبانا أو منافقا قال هذا عين الحكمة والدهاء ، ولب الفطنة والذكاء وهكذا يعين الغرور كل امرئ على ان لا يسلم لمن هو أعلى منه بالسبق والافضلية ويدخل عليه ان ما عنده خير مما عند غيره . ومن حسن حظ المغرورين ان النعم والنقم والمناقب والمثالب توائم تشابه فى السمات وتباين فى الصفات ولكل نعمة من النقمة ، ولكل فضيلة صنوف من الرذيلة فالسعادة اخت البلادة والدعة اخت التوانى والارادة اخت العناد والزمانة اخت الحياء والانفة اخت العجرفة والقحة اخت الجرأة والاحتيال اخو الذكاء والجود أخو السرف والبخل أخو القصد والمجد أخو الجبروت والحلم أخو الجبن

---

(١) اتعب

والفصاحة اخت الثرثرة والكآبة اخت الوقار والحدة اخت الضجر وهلم جر . فيسهل على المغرور أن يمسخ كل فضيلة رذيلة ، ويمثل كل نقمة فى زى النعمة . ويكون هو أسعد الناس بمثالبه ونقمه ، ويكون غير أشقى الناس بمناقبه ونعمه

ومما يحكى ويناسب ما نحن بصدده ان عجوزا شوهاء قرعاء عوراء بخراء وقفت امام المرآة مرة وجعلت تقول :

عجوز ! نعم ولكننى شبت على صلاح . . .

شوهاء ! بلى ولكننى لم أحتال ولم أزور على الناس بالطلاء كما يصنع معجات النساء . . .

قرعاء ! أجل ولكننى لم أدنس رأسى بوساد الحناء والفجور . . .

عوراء ! أى ولكننى لم انظر لريبة قط . . .

بخراء ! صدقوا ولكننى طهرت فمى أن ألوثه برائحة الهجر والمهاترة ونتن السفه والمشاتمة فوقرت بعلى وأمن جلسائى من لسانى . . . .

قالوا وكان ابليس واقفا يسمعها فقال يافاجرة ! لقد عرضتك على الزناة والفسقة فى مشارق الارض ومغاربها فكلهم عافوك وصدوا عنك ، واقسم لو كان فيك مطمع لغير القبر لما ابيت ان تضمى الى عيوبك التى فيك هذه المخازى التى تعيرنيها (١) النساء وتدلين عليهن بالطهارة منها

***

والى هنا لا نعد الغرور شرا محضا . فكم ارضى ساخطا وكم خفض من جأش محروب وكم طلبة ذابت عليها انفس الناس حسرات فأعطاهم منها فى الوهم ما لم ينالوه ولن ينالوه فى الحقيقة . والغرور قد يقعد المرء

---

(١) عيره كذا وعيره به سواء

عن طلاب الكمالات بما يخيل اليه من حصولها عنده واستحواذه عليها ولكنه طالما استفز الطامحين الى العلى بما اكبر من اخطارهم (١) فى انظارهم فالتزموا حقوق المنزلة التى فرضوها لأنفسهم ثم افضى الامر الى ان تبوأوها فاستحقوها بالتطبع بها والمواظبة عليها . فهو خير وشر ، وحق وبهتان . وما اخطأ كارليل حين قال « هو حاسة سادسة لا تشبع » وكما اننا لا نصم الاذن اذا اسمعتنا ما نحب وما نكره ، ولا نقفأ العين اذا أرتنا ما يسر وما يسوء ، ولا نجدع الانف اذا أنشقنا ما ينعش وما يؤذى ، ولا نقطع اللسان اذا أذقنا ما يحلو وما يمر ، كذلك لا نستأصل الغرور اذا كان فيه مع الصدق الآجل كذب راهن ، وكان الكنز لديه لا يخلو من المارد

---

(١) الاخطار هي الاقدار

نادى العجول(١)

نبئت أن العجول اجتمعت مرة لتنشئ لها ناديا تأوى اليه . ولا تعلم ماذا ساقها الى هذا الخاطر الغريب : أقلة العلف ، أم ضيق المداود ، أم ذاك مرض النوادى الذى سرى من النبهاء الى الاغمار ، قد فشا حتى سرى من الاناسى الى الابقار ؟ ؟ هذا سر فى صدور العجول

فلما تكامل عددها ، وانتظم عقدها ، وقف منها عجل يظهر من كبر دماغه انه ملم بالتاريخ والاخبار . وقال :

« أيها السادة ! أن العجل مدنى بالطبع : ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بنى آدم بضخامة الاجسام وصلابة القرون . ولقد عبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون لنا بأسنا ويتمسحون باذيالنا حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فالهونا من فرط الاجلال ، وسبحوا لنا بالغدو والآصال ، وكانو يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدهم بأسا وأرفعهم ذكرا أعنى الاسكندر المقدونى بذى القرنين . وما اسكندرهم هذا وما قرناه ؟ ؟ ان أصغر عجل فينا ليهشم رأسه اذا ناطحه ويجندله اذا واثبه أو صارعه . . . . . فالعجب لك أيتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد ، فتقام لك الصوامع

---

(١) كتبت هذه المقالة فى ناد اتفق ان أكثر أعضائه كانوا من ضخام الابدان وقد تأسس النادى لاسباب تجعل لذكر القرون فى المقالة مناسبة ظاهرة ! !

والمعابد ، بدل النوادى والمعاهد ؟ ؟ ألما تنتهى لما يجب عليك لبنى جنسك ، وما هو فرض معين عليك لنفسك ؟ . . »

قال محدثى : ولما بلغ الخطيب الى قوله هذا بان الحماس على أوجه العجول قاطبة فهزت رؤسها استحسانا ، وخصت الارض باظلافها طربا وضربت جنوبها باذنابها مرحا . وخشى عاقبة هذا الحماس عجل هرم فقام وقال : الآن قد عرفنا ما يوجب علينا انشاء هذا النادى ، وسمعنا فى بيان ذلك ما سمعنا ، فخذوا بنا فى انتخاب الزعيم ، ومن رأيي أن لا يزيد وزنه عن عشرة قناطير ليكون خفيف الحركة فى أعمال النادى...

وكان يتكلم ويتمهل ليلحس شفتيه ويجتر مضغ العلف التى تردد الى فكيه فلم يمهله الخطيب الاول بعد جملته الاخيرة فوثب كالمنخوس وصاح وهو يرتعد من الغضب « لا ! لا ! لا ! وكلا والف مرة كلا ومعاذ النعرة الجنسية ان نرضى بهذا الاقتراح . أفنقبل علينا زعيما لا يزيد وزنه عن عشرة قناطير ؟ ؟ فماذا ابقينا اذن لهؤلاء الآدميين العجاف الضآل ؟ ؟ هـذا وربي ما يزرى بشرف العجول ويحط أسعارنا فى الاسواق حطة لا قائمة لنا بعدها مدا الدهر »

قال محدثى فماج النادى واضطرب ، ثم كثر الزئاط واللجب ، وكاد ينفض الجمع بلا طائل . لولا أن تلافى الامر ذلك العجل الهرم فوقف متبسما وقال :

يا اخوانى ! ما أردت أن أغض من شرفكم بما اقترحت عليكم ، ولكن معنا هنا ابقارا حلب الدهر اشطرها ، وأكل نير السواقى فرائصها . فهى ما زالت ترى أن السمان الفواره منا عرضة لظلم بنى آدم وانه خير للنادى ان يكون زعيمه معتدل الضخامة لا بالجسيم الهائل

ولا بالتحيف الناحل . فان كان ذلك لا يرضيكم ، فشأنكم وما تريدون ودونكم وما ترتضون ، فانا لكم أيها الاخوان لموافقون »

قال هذا وبرك فهدأ الاضطراب وجالت رقاع الانتخاب

***

جالت الرقاع فانتخب العجول زعيما شفيع الوجه ، منفرج البطن منحوس الطلعة ، نكير الصوت ، ثم اختارت الرئيس فالوكيل فالناموس فالمفتش فالامين — خمسة عجول تتفاوت فى الجسامة حسب تفاوتها فى الدرجة ، فاصطفت صفا ، ثم أقبلت وأدبرت ، ثم دارت فى النادى تدبدب بأرجلها ، وتشول بأزيالها ، وتنفخ التراب بمناخرها ، ثم خورت خواراً رج الفضاء ، وطبق الارجاء ، وأصبح فى الدنيا منذ ذلك اليوم ناد للعجول . . . .

علم الاحترام

نعم علم الاحترام . ولماذا لا يكون الاحترام علما ؟ ؟ ألا يشتمل كما نشتمل العلوم كلها على مبادئ وأصول ، وحقائق وفروض ؟ ؟ والعلوم على تعددها تبحث فى مقادير الموادوالاشياء ، وفى نسب بعضها الى بعض ، فان تجاوزتها الى الناس لم ترتق الى الموازنة بينهم ، ووضع قيمة صحيحة لكل منهم ، أما علم الاحترام الذى نريد أن نبتكره فيبحث فى اقدار الناس وما يتفاضلون به من عروض الحياة ومحاسن الشيم . فهو أشرف العلوم موضوعا ، وهو آخر ما يلقاه الطالب منها ، لان الطالب يتلقى العلوم الاخرى فى الكتب ويحضرها على الاساتذة وهذا العلم لا كتاب له يحصر أبوابه وأقسامه ويضبط قواعده وأحكامه ولا أستاذ يمليه على طالبه فيريحه من جمع متفرقه ، اذ هو مفرق بين أيدى الناس الرفيع منهم والوضيع ، والمحنكين منهم والاغرار ، ففى كل يد عجالة مبتورة ، ومع كل خريج وصية ناقصة . وانما على الطالب أن يتبع أجزاءه فى مظانه ، ويستعين عليه بأهله . فانه ان لم يفعل لم يكن قصاراه أن يجهل ما يحترم به الناس ، بل جهل الناس مايحترمونه به

ولم أقصد بعلم الاحترام هذا الذى يصنعه بعضهم اذ تراه يتهيب ويوجل وهو داخل على من يحترمه كانه يقتحم غابات أفريقية ، أو ينتفض ويشد عرى قبائه كانه يقابل ثلوج المنطقة القطبية ، أو تهبط بيديه ثم يرفعهما كانه يحثو التراب على رأسه ، أو يرخيهما على صدره

كالكلب يعالج الوقوف على رجليه . فهذا علم شائع قد حفظه كثير من الناس وأتقنوه . وليس بين الرجل وبين أف يتضلع منه الا أن يحتقر نفسه فتنقاد له مبادئه وخواتميه فى أقل من قولك ألف باء

ولكننى قصدت العلم الذى من عرفه فقد عرف الانسان ومن جهله فقدجهل كل شىء والذى لا يعلمه الا القليل ولا يعمل به الاالاقل من ذلك القليل

رأيت رجلا ذا قدم فى هندسة البناء راسخة ، وشهرة فى سائر فنون الرياضة ذائعة . وكنت أسمع أخاه يقول لوكان أخى فى أيام خوفو لما بنى الهرم الاكبر أحد سواه ، ولو حضر بابل يوم اندك صرحها لما دكه الله ، ولكنى رأيته يطأطئ على يد صعلوك يسيل مخاطه على سباله ، ويجرى لعابه على لحيته ، فيقلبها ظهراً لبطن ثم بطنا لظهر . فقلت هذا رجل يشيد الهيا كل الا انه يعبد الاصنام ، ويعرف نسب الاعداد والارقام ، ومقاييس الاجسام والاحجام ، لا يعرف الطول من العرض ، ولا الخلف من القدام ، فى علم الاحترام

هذا نصيب مهندس كبير من هذا العلم فما ظنك بالجهلة ، وماذا يبلغ أن يكون جهد السوقة السفلة

تقول لك آداب السلوك احترم من ينفعك ، وتقول لك آداب الصدق احترم من ينفع الناس ، والقصد بين المذهبين ان تحترم من لا يسعك احتقاره سواء فى سرك او فى علانيتك . أما الناس فيحترمون من يخافون شره أكثر من احترامهم من يطلبون بره . وربما شاب احترامهم لاهل البر بعض الرياء واما احترامهم للظلمة والطغاة فخالص لا شائبة للرياء فيه ، بل هو احترام لو أكرهوا أنفسهم على تركه لما استطاعوا

ويارب فتى مبتدئ فى هذا العلم يخرج من كنف أبيه او أستاذه ويمضى على رأسه حائراً لا يعلم من يحترم ولا كيف يحترمه . ولا يعلم من يحتقره ولا كيف يحتقره . وتراه يغالى باحترامه ويضن به على من لم يكن أمة فى رجل ، وعالما مجتمعا فى واحد ، ويمسك بميزانه وقد وضع فى احدى كفتيه صنجة النبوغ وصنجة الاخلاق وصنجة السمت (١) وصنجة الرآسة وصنجة الثروة وغيرها من الصنج التى يوزن بها الرجال ويذهب بالكفة الاخرى عله يجد فى الناس من يملأها ويثقل فيها . فما هى الا دورة أو دورتان فى الطريق والبيوت والاسواق والمحافل حتى يؤوب وقد رفع من كفته أكثر الصنج . يرفعها واحدة بعد واحدة ولا يدع فى الكفة الا صنجة أو اثنين . وهما فى الغالب صنجة الرهبة وصنجة الطمع . ثم لا يمضى غير يسير حتى يصبح وهو لا يرجح فى ميزانه الا أخف الناس وزنا فى نفسه ولا يخف فيه الا أرجح الناس وزنا عنده ، وحتى يكون بين ظاهره وباطنه فى الاحترام أبعد مما بين الارض والسماء

ولقد هالنى هذا الامر وخفت منه على آداب المبتدئين فمن لى ان أدعو لجنة من العلماء الى وضع كتاب واف صريح فى علم الاحترام يعصم الناس من الخلط والخبط فيه ويحجزهم عما يتخلله من الدهان والملق.. فاستقر رأيى على هذه الفكرة أياما . ولكننى رجعت الى نفسى فقلت ومن يارى يشرح للناس مسائل هذا الكتاب ؟ ؟ وأى أستاذ يرضى بأن يعلم الناس علما يحتقرونه به ؟ ؟ ألا يكون شأن الاساتذة فى هذا الكتاب كشأن الفقيه المنافق فى كتب الدين ؟ ؟ يلقن الناس منها ما

---

(١) السمت الوقار وجمال الهيئة

يدر عليه الرزق ، ويوطئ له الاعناق ، ويعمى عنه العيون ، ويتركهم من الدين القويم فى جهل مبين مقيم ، وعن اليقين ، فى ضلال مبين

فيئست من أن يكون للناس قسطاس صادق المعيار ، أمين على الاقدار ، ورأيت أن أفضل ما يصنع العلماء ان يشتغلوا بعلومهم التى انقطعوا لها وان يدعوا كلا وما يهتدى اليه فى علم الاحترام

جمجمة الانسان

أذكر فيما قرأت من حكايات الفرس حكاية يروونها عن النبي عليه السلام . زعموا أنه أصحر (١) ذات يوم قائظ ومعه اصحابه فنزل فى ظل شجرة باسقة والى جانبها غدير ماء مصطفق رقراق يشوقك النظر اليه الى الشرب منه . فلما اشتد أوار الظهيرة عطش النبي فقام الى الغدير فتناول منه بجميع كفيه وشرب فوجد أبرد ماء وأعذبه ، وأصفى ورد وأطيبه ، ثم عطش مرة ثانية فعاد اليه فترشف منه رشفات روته من غلة العطش ولم تروه من عذوبة الماء وحلاوته وذهب فى المرة الثالثة فوجد على الشاطئ إناء فأخذه وملأه من الغدير واجترع منه جرعة فاذا تلك العذوبة ملح زعاق واذا صفاؤه الضاحك البشوش قذر لا يطاق فمج الماء من فيه ونظر فى الاناء فألفاه نظيفا ولم يتبين فيه ما عساه ان يكون منشأ هذه الملوحة والقذارة . فرفع بصره الي السماء متعجبا وكانه يسأل الله عن سر هذه المعجزة وماذا أراد جلت قدرته بهذه العبرة ، ويقول كيف ينقلب الماء فى لحظة من طعم الى طعم والغدير واحد والشارب واحد . فما ارتد طرفه حتى أنطق الله الاناء فى يده فقال لا تعجب يانبي الله فان فى التراب الذى صنعت منه ذرة من جمجمة انسان فهذه الذرة هى سبب هذا التغير . ولو علمت يانبي الله من الماء براحتك كما نهلت (٢) لما أنكرت من طعمه ما أنكرت

---

(١) خرج الى الصحراء

(٢) نهل شرب للمرة الاولى وعل شرب للمرة الثانية او الثالثة

ما أراد واضع هذه القصة أن يقول أن فى جمجمة الانسان مرارة كمرارة الحنظل ترشح فى طعم الماء كما يرشح الحنظل فيما يخالطه من الاشياء ، ولكنه يقول فيما ورى به ان فى رؤوس الناس سماً حاضرا يرد الطيب خبيثاً ، ويحيل السائغ المرئ كريها مسقما ، وان هذا الجانب المسموم من رؤسهم يضيع عليهم كل ما يدأبون له ويضبون عليه (١) ببقية جوانب رؤسهم التى بها يعملون على رفاهة العيش ، ويرغبون فى هناوة البال

ان هذا السم الذى فى رأس الانسان يضنى صاحبه قبل ان يضنى البعيدين عنه ، وكلما كان الرأس قريبا اليه وكثير الاشغال به كان سمه افتك وأسرع فعلا . وهذا هو المشهد المحقق . فأول من يلدغ الانسان نفسه ثم عترته الادنون ، ثم خلصاؤه المقربون ، ثم أهل وطنه المعاشرون ، ثم الاعداء الحاقدون ، ثم من لا يعرفهم ولا يعرفونه من الناس : ابعدهم عنه اسلمهم ، والزمهم له اظلمهم . ولو تسنى لامرى ان لا يعيش الا مع من لا يكترث لهم ولا وصلة بينه وبينهم ، لما عز على احد ان يستدل اقصى الناس عنه بألصقهم به . ولقد جعل السم فى ناب الافعى وقاية لها فصار هو مدعاة هلاكها ، حتى ان ما يقتل منها لاجله اضعاف ماينجو بسببه . وهكذا صار السم الآدمى مقتلا وسلاحا لصاحبه وداء ودواء له .

انا لا اصدق الا ان الانسان اقدر على اشقاء نفسه وغيره منه على اسعاد نفسه وغيره فلماذا هذا ؟ ؟ إلا أن السعادة ليست ضرورية للانسان كالشقاء ؟ ؟ نعم نحن أرغب فى السعادة ونحن اطلب لها . ويخيل

---

(١) يضب على الشئ بمعنى يشتد حرصه عليه

الينا اننا لا نحيا بغيرها . ولكن لماذا لم نعط من وسائل السعادة ما أعطيناه من وسائل الشقاء، وما معنى هذه الرغبة ياصاح ؟ ؟ هل تأتلف الرغبة والحاجة دائما ؟ أم هل ترتبط الكراهية بالاستغناء فى كل حين اللهم لا

فيا أيها الظامئ الجاد وراء السراب : ان كان ظمؤك الى السعادة وليس الى شئ آخر فلا ترج ان تشربها فى جمجمة انسان ولا سيما الجديدة التى لم تعتق والمقفلة التى لم تكسر . . . وانك قد يحلو لك سلسبيل الحياة اذا تجرعت منه بكفيك ، ولكنك حيثما عدت الى اناء غير يدك او أداة خارجة عن جسدك ، فهنالك لا بد من ذرة من جمجمة انسان . . .

الصدى ونرجس

الصدى فى أساطير القدماء جنية من بنات الغاب والاودية ، ونرجس فتى سليل الهين من آلهة الماء . وكانت الصدى ذات منطق فصيح وحديث خلاب يستهوى السامع فينسيه نفسه ، ويلهيه عن شأنه ، فمرت بها (هيرا) حليلة (زوس) رب الارباب فاستوقفتها بالحديث وعاقتها عما قدمت له . وكانت هيرا قادمة لتباغت (زوس) مع خليلاته فلما وصلت كن قد هربن وبقى حليلها وحده فى مخدعها . وعلمت هيرا انه لولا الصدى لما أفلت أولئك الضرائر منها فغضبت عليها وسلبتها قوة الحديث الا أن تردد ما تسمعه ولا تزيد عليه

أحبت الصدى نرجس فلم يحفل بها ، وامتنع عليها أن تبثه هيامها فذاب لحمها ؛ وبلى عظمها ، ولم يبق منها الا نفس مصعد ، وصوت مردد

أما نرجس فقد نقمت عليه (نمسيس) بنت الليل والربة المنتصفة للمظلوم من الظالم . نقمت عليه جفاءه وتيهه فأمهلته الى أن أقبل على بعض العيون ووقف يعجب بما أبداه الماء من جماله فسختة زهرة فى مكانه ، فهو لا يبرح واقفا على حافة العيون والجداول ناكس الطرف يطل على خياله فى الماء

***

بهذا التمثيل الشعرى كان القدماء يفسرون عجائب الطبيعة ويشاركها

الاحساس فيبتهجون ويخالون انها تضحك لهم ، ويحزنون ويحسبون انها تبكى معهم ويصاحبونها مصاحبة الاحياء للاحياء ؟ فكانت الطبيعة حياة كلها وليس فى زاوية من اخفى زواياها موضع للجمود

وقد كانت هذه الاساطير مادة غزيرة للشعراء فأولعوا بالنظم فيها ، وعنى أحدهم بنظم قصص المبدولين والمتقمصين فسبكها أحسن سبك . وهو (ببليوس اوفيداس ناسو) شاعر لاتينى ولد قبل الميلاد ونفاه القيصر أغطس من رومة لافتتان الشعب الرومانى بغزله . كما نفى عمر بن عبد العزيز الفرزدق من المدينة لتهتكه وكما نهى المهدى بشارا عن النسيب فى ابان المدنية العباسية . واليك ما نظمه فى حكاية الصدى . قال :

« راحت الصدى تقفو أقدام نرجس ولا يراها . وكلما لحقته تعاظمت برحاؤها ، وتحرقت أحشاؤها ، كهواء المشاعل بتبعها ولا تدركه الابصار ، ويكاد يضطرم وان لم تمسسه نار . وطالما همت بان تفاتحه بتحية أو تستعطفه بكلمة ، فكان يخونها الحياء ، ويستعصى عليها النداء

« وضل نرجس عن رفاقه يوما فجعل يصيح أليس هنا احد ؟ ؟ قالت الصدى . . هنا أحد . . وسكتت

« فبهت نرجس وتلفت حوله ليرى مصدر الصوت . ونادى هلم الى هلم الى ! فسمع الصدى يجيبه : هلم الى . . .

وقال نرجس دعينا نلتق ! ! فسرعان ما سمع رجع كلامه بصوت مدفيه الحنان . وترنمت به الشعاب والغيران ووثبت اليه تضمه وتعانقه فاجفل منها ومضى وهو يقول اعز بى عنى ! ! لا كنت ولا كان قلبى ان جرى بيننا الحب . . .

« صدمة كسرت قلب الصدى فنادت وهى كاسفة . . . جرى بيننا الحب ! !

« ثم ما زالت ينخر فى قلبها الداء الدفين . ويأكل منها الكمد والانين . حتى عادت أرق من الحواء . وبراها النحول الا خفقة نداء. لاتلبث ان يعبث بها الفضاء »

قوة الارادة

خطر لى أن أبتدع فى التجارة بدعة حسنة فاخترعت أن أتاجر بالاخلاق النافعة للمصريين فاقتديت باولى الخبرة والنظر البعيد من التجار اذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع فى بلد من البلدان ، يتوخون حاجة السوق ويستقصون عادات أهل البلد ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد في الرواج والنجاح فتوخيت حاجة السوق فى مصر وتقصيت عادات المصريين وفتشت عن الخلق الذى ينقصهم أكثر من أى خلق سواه فعلمت أنه قوة الارادة فعولت على أن يكون اشتغالى بهذا الصنف من الاخلاق

وراقنى هذا الخاطر فمنيت نفسى رواجا سريعا وربحا جزيلا وأننى سأكون أنفق تجارة وأكثر عائدة من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين لان حاجتنا الى الوطنية أقل من حاجتنا الى الاخلاق ولاسيما قوة الارادة وفى مصر كثير من الوطنيين المؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليه نعمة الاخلاق ففنوه فيها عن المزيد . وذهبت أحصى أرباحى ومكاسبي فى السنة الاولى فالسنة الثانية وفى السنين التالية فضاق بها الحصر ولم يستوعبها الحساب، وسرنى أن أحلم بأنه سوف لايكون فى الاثنى عشر مليونا الذين يسكنون وادى النيل مصرى واحد إلا لديه مقدار كبير اوصغير من تجارتى ، فقلت انها والله للتجارة التى لاتبور

واكتريت الدكان فى أوسع احياء العاصمة وأحفلها بالسابلة والقطان وزخرفته أيما زخرفة فصفحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب

وصنعت رفوفه من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل ما خط الكاتبون كتبت عليها « هذا دكان قوة الارادة . يعطيك على نفسك سلطانا لاحد له » ثم جلست على بركة الله أشمر للتعب والعمل وأخففهما عنى بما أرجوه من المنفعة لى وللناس

فكان أول من سنح لى فى صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر فوقف قبالة الدكان يترنح ذات اليمين وذات الشمال وأوشك أن يميل على ألواح البلور فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشؤمة . ولو كنت ممن يتطيرون لاغلقت دكانى لساعتى وجزمت بالفشل ولكننى تبصرت ولبثت ألاحظه وهو تارة يحملق الى وتارة يتهجى العنوان حرفا حرفا حتى أتى على حروفه بعد شق النفس ثم قال لى وكان روحه تصعد مع كل كلمة

أأنت صاحب الدكان ؟

قلت نعم

قال أنت بعينك ؟

قلت أناهو بعينى لاسواى . . . .

قال وتبيع قوة الارادة ؟ ؟

قلت من جميع الاصناف

قال ولنا أيضا تبيعينا ؟؟ . . . لاتؤاخذنى فانى أحب أن أستفهم ؟

قلت أجل . لك ولكل من يشتريها

قال : فأنا أسهر كل ليلة كما ترى واسكر وأقامر وأجىء فى هذه الساعة فيثقلنى النوم ولااحب ان انام . فهلا عندك صنف من الارادة أتسلط

به على النوم ويقوينى على السهر ليل نهار ؟

قلت . ليس هذا من الاصناف الموجودة ولو وجد لما بعناه . ونحن باعة الاخلاق لا نقل فى الامانة لصناعتنا والحفاظ بذمتنا عن الصيادلة . وقد تعلم أنت أن الصيادلة لا يبيعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا أصناف أصلح لك من هذا الصنف فهل لك فيها ؟

قال: أرنيها

فسردت له أسماء الاصناف التى فى الدكان وأريته كل صنف منها فى علبته ولم آله تفصيلا لفوائدها وترغيباً فيها وبسطت له أسماء الارادة المانعة وخواصها منع الناس عن مقارفة العادات الضارة . من التدخين الى المقامرة ومن الكذب الى الوقيعة . وتختلف المقادير والاثمان، باختلاف الادمان والازمان

وأصناف الارادة العاملة وخواصها إيلاء الناس عزيمة وصبراً على تذليل مصاعب الاعمال وتحقيق همامات الانفس . وأرخصها قضاء المرء واجبه ، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه . وهى أغلى من الارادة المانعة لان القدرة على أداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحظور . واعلى من هجرك ماتؤاخذ به فعلك ماتحمد عليه . وعددت له أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعت بهم قوة الارادة ودفعت بهم أممهم الى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرى . وأطنبت فى الوصف والتحسين وهو يصغى الى بما بقى فى حواسه من الانتباه ، فأطمعنى أصغاؤه فى أن يكون أول تجربة ناجحة واصدق اعلان عن الدكان . ورأيته يطرق مليا ثم قال . ولكن من يضمن لى جودة الاصناف ويكفل نقاوتها من الاخلاط والاوشاب

فقلت فى نفسى سبحان الله ! هذا الذى يذهب كل ليلة الى الخمار لايسأله أيسقيه سما أم خمراً ، ويغشى موائد القمار ويخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق اليها بغير سائق لايريد أن يشترى قوة الارادة الا بضامن ولكننى جاريته وقلت له : لاخوف عليك من هذه الجهة فسأعطيك علبة نموذجا فجربها وسل من شئت من التجار . ولك بعد ذلك الخيار

* * *

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد الى فى اليوم الثانى مفيقا صاحيا فجلس بتؤدة وأدب وقال لى : لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أقامر ولاأدرى أبفضل العلبة ذلك أم لنفاد المال منى وكنت اذا نفد المال منى اقترضت ، فلم أقترض أمس ، فلا أدرى أيضا اكان ذلك قوة فى الارادة أم حياء من الرفض وكنت لااستحى فلا ادرى والله كان حيائى خلقا جديدا اكتسبته منذ تعاطيت قوة الارادة أم لتكرار الطلب واليأس من الاجابة

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن اكثر التسآل يوما سيحرم

على انى سألت التجار تاجراً تاجراً فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لافى الشرق ولافى الغرب . ماعدا التاجر فلان فقد عرفه وخصه قليلا فرده الى مشمئزاً وهو يقول خذ ياشيخ : فقد سئمنا هذا السخف والتدجيل ! وهل فرغ الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الارادة أيضاً ؟ ؟ واذا كانت عوائق الدهر تحرمك شطراً من ملذات الحياة وأنت تحرم نفسك الشطر الباقى فأنت لاشك الذى يقال فيه أنه عدو نفسه . . . فخل عنك هذه الاضاليل ولا يغرنك ما تقرأ من الاعلانات وماتسمع

من المواعيد فلو كان فى هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس الي اليوم ولم ينسها دهاقين التجار الازمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود

فأسكت هذا المهذار وندمت على التفريط فى العلبة وكان أعجب ماعجبت له كلام ذلك التاجر لعلمى بأنه ممن يميزون أمثال هذه الاصناف ويحسون بنقص السوق فيها . ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة . فخفى عنى غرضه من تبغيض الناس فى بضاعة ليس بينى وبينه منافسة عليها . ولكنى وقفت فيما بعد على سبب ذلك ، وهاك بيان ماوقفت عليه : —

* * *

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدر لها الربح الطائل والرواج السريع ، ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها . شأن الاعلاق النادرة . تزييفها كثير والغش فيها جائز ، وذاك لان عارفيها معدودون ولان جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق وليس بالثمرة والجوهر . فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص بذلك الربح فماونى دون أن فتح له دكان تجاه دكانى وتأنق فى تزويقه وتنظيمه وكتب عليه « هذا دكان قوة الارادة الصحيحة . يعطيك سلطانا لا حد له على ملذات الحياة »

فتح الدكان واستأجر له دلالا سليطا يفتأ سحابة النهار يصرخ بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول : ياطالب الارادة الصادقة ، حى على الغنيمة قبل فواتها ! ! ياعشاق العزيمة الماضية . هلموا الى اعظم معمل للعزيمة الماضية . هيا الى ارخص سلعة سمرا واسرعها فعلا واصمدها

على الطوارىء أثرا . ارادة لاتتكاءدها (١) عقبة ولاتصدها عن غايتها طلبة . فمن اشتهى السكر فصدته عنه مرارة الراح فليشتر من هذا الدكان فيستعذب تلك المرارة ويعاف عنده كل حلاوة . ومن صبا الى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه بقوة ارادتنا فاصبح لايحفل بالعذل والملام . ولا يبالى بالضيم والسقام . ومن تورط فى القمار ثم تهيب خشية الاملاق والدمار . ومخالفة الفضيحة والعار . فعندنا ما ينزع منه تلك المخافة . وعندنا لكل ارادة شهادة . فالبدار البدار ! قبل غلاء الاسعار فاليوم بدرهم وغدا بدينار

فما شككت فى أن المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر رأس ماله وتوقعت له الخراب الجائح القريب . إذ من أين له أن يزاحمنى فى تجارتى وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد . وأنا أبيع ارادة الجد والعمل وهو يبيع ارادة اللهو والكسل . ولكن سرعان ما أخطأ حسابى وارتد على تكهنى . وما اراعنى الا الجماهير على ابوابه يتكوفون (٢) وبضائعه فى كل واد تسير . بحيث لم تخل منها المدينة والقرية . والبيت والحانوت والحانة والنادى . ولم ينته الشهر ففتح دكانا جديداً الى جنب دكانه . ودار الحول فكان له فى الحى خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر فى الديار

أما أنا فقد أعطيت فى اليوم الاول تلك العلبة لذلك السكران فكانت أول وآخر ما صدر من دكانى . ومرت أيام وأيام . وتلتها شهور وشهور وتمت ثلاث سنوات مجرمات (٣) وأنا بتلك الحال أراقب التلف يدب فى

---

(١) تكاءدته العقبة وقفت فى طريقه (٢) يجتمعون
(٣) السنة المجرمة الكاملة

بضاعتى وأعاين السوس ينخر فى ارادتى — وما الارادة الا كالسيف يصدؤه الاهمال ويشحذه الضراب والنزال — فدهشت وغضبت . ثم صبرت وتعللت . ثم يئست وسلمت فاقفلت الدكان وطلقت التجارة وها أناذا أسأل عن المحكمة لاودعها الدفاتر والمفاتيح

الشجاعة والعدوى

لا أحسب أحداً يجهل ان هناك فرقا بين الشجاعة وحب الموت . كفرق بين الجبن وحب الحياة : فقد يهجم اليائس الموتور على حتفه : ويطرح بنفسه مطارح الهلكة . وهو بعد الجبان المنخوب . وربما كان هجومه هذا آية جبنه وجزعه وقد يبرز الوحش الضارى للفأس الصؤول (١) أو يدهمه القطار أو يسقط عليه الحجر العظيم فيتحاشاه وينفر منه . .

— وهو الجرئ على الحمام المقبل —

وانما يحمد الاستخفاف بالحياة والاجتراء على الموت ان كان ذلك لواجب تصغر الحيات فيه . ويتحتم الموت لاجله وأما فيما سوى ذلك فلا واجب على الحي أقدس من واجب صيانة الحياة عنه . ولا جناح عليه أن يحب البقاء أبد الدهر لو كان الى البقاء سبيل

ان كان ذلك كذلك فلا فائدة لك ولا للناس فى ان تدخل مع جراثيم الحميات والاوباء فى وقعة مشكوك فيها . وأنت وحدك وهى — أبادها الله وشتت شملها — وقد شبت على الاتحاد والتكاثر وان كانت فى جو مصر ! ! فتهاجمك فى الماء والهواء . ومن بين يديك ومن تحت قدميك . وأنت لا تراها ولا تشعر بها ونحن مع ما نعلم من ان الحكومات تكافئ كل شجاع على استقبال الموت فى حومات الوغى

---

(١) كثير الصيال

وبين نيران الحريق . ما علمنا قط انها علقت نوطا أو وساما على صدر أحد لانه صارع الميكروب فصرعه وانتصر عليه . اللهم الا ان كان بعض الاطباء قد يظفر منها بالنوط أو الوسام تنويها بنصره عليه وفتكه به . ولكنك خليق أن لا تغرك شجاعة هؤلاء الاطباء فانهم يحاربون الجراثيم وهي مكتوفة فى الانابيب ومحذرة بالعقاقير وليس هذا من أصول الحرب ولا من شروط المناجزة فى شئ . وان من غرائب الخليقة وطرف العقول أن يكون بين اخواننا فى الآدمية من تراه يقيم فى وسط بؤرة تصعد منها رائحة البلى . ويركد فيها الهواء من ثقل ما على كاهله من القذر والقذى . وتسمع فيها الميكروب كالذباب

— هز جايحك ذراعه بذراعه —

وينادى فيها عزريل ليلا ونهارا : ألا من حى فأزهقه ؟ ؟ ألا من نأمة فأسكتها ؟ ؟ ألا من تعب مكدود فاحمله ؟ ؟ ويمر أمام بصره فى تلك البؤرة مركبات الاموات حثيثة العدو من عالم الدنيا الى عالم الآخرة . . . وتقول له انج ياصاحبي بروحك واسلم بعمرك . وقد يكون من مذهبك ان من ينتظر مثل هذه النصيحة من سواه غير جدير بان يحرم الحفار اجرة قبره والبزاز ثمن كفنه . فتغلط على نفسك وتأخذك الهوادة فى مذهبك وتنصحه بالرغم من ذلك فيقول لك : معاذ الله ان أخاف الموت أو أفر من قرب الله . . . يقولها الملعون وكانه يعتقد ان الله بعيد الا عن تلك البؤر التى يفوح نتنها وتطرد الملائكة وخامتها ويقول الملعون وهو يجعل أن عمر بن الخطاب فر من الطاعون . ولما لامه ابو عبيدة وقال له أتفر من قدر الله ؟ ؟ قال نعم الى قدر الله . . . وناهيك بعمر شجاعة وصبرا وايمانا بالله واتكالا عليه

ولى صاحب من هذه الطغمة — ولا عار فى الصحبة — عثرت به فى احدى تلك البؤر فنصحته تلك النصيحة فكنت كانما اخزه بها وخزا. واذا هـو يزور عنى ويلوى كشحه ويقول : أأنا أعبأ بالحميات والامراض ؟ : رمثلى يافلان يرضى ان يذاع عنه انه أجفل من الموت ؟ وهل يدركنا الموت فى مكان وينسانا فى مكان ؟ ؟ وما كان ظنك بعقلى وانت تنصح لى بالجلاء عن دارى التى ولدت فيها والانهزام أمام عدو لا أراه ؟ ؟ وأين ما عودتك فىّ من الجلد وعودتنى فيك من تشجيع الاصدقاء ؟ ؟ و و . . . قلت حسبك ولـكنى آسف ياسيدى على هذه الشجاعة الفائقة أن لا تتصدى بها لكل قوة من قوى هذه الطبيعة المغرورة بنفسها . ومابالك تستهزئ بالموت بالجراثيم كانك تستصغرها ولا تستهزئ بالموت غرقا أو حرقا أو صبرا (١) فهو لا يغبك يوما وأنت تهرب منه كل يوم مرارا ؟ ؟ وهذه القواطر والسيارات والترام كثيرة فى البلدان ، والناس يتنحون لها عن الطريق ويفرون منها كل مفر ، فما بالك لا تثبت أمامها وتريها انك لست من هؤلاء الناس ؟ ؟ بل ما بالك لا تبالغ فى احتقار الجراثيم والزراية بها فتشرب قدحا من حمض الفينيك الذى يقتلها لتبرهن لها عـلى انك لا تعبأ بما يميتها . فـكيف بها ؟ ؟

ولما رأيت اننى سألته بقـدر ما سألنى ، وأجبته بمثـل ما أجابنى فصلت (٢) من عنده وأنا افـكر فى اقتراح أعرضه على أولى الامر — وهو أن تجمع الحـكومة أفراد هذه الطغمة وتلصق بوجوههم علامة يعرفهم بها من يراهم . حتى اذا وقف أحدهم فى طريق سيارة أو ترام أو

---

(١) الموت صبراً أى جوعا (٢) أى خرجت

تعرض أمام صائد يطلق على هدفه . لم يكفف الصائد يده ولم يتعب السائق فى ايقاف سيارته أو ترامه . فيضيع من وقت الركاب دقيقة أو أكثر لانقاذ حياة هانت على صاحبها الى هذه الدرجة وليست هى على الناس بأقل هوانا

مواضع الملاحة

مهما تعمقوا فى تعريف الملاحة ووصف محاسن الوجه وقالوا فيها ما يشبه قولهم فى السحر أو الروح واليوم الآخر . فلا اخالها ترد فى بادئ أمرها الا الى انها شارة فى أظهر عضو من الجسم — أعنى الوجه — كانت ولا تزال فى بعض الاحيان تدل على فضيلة جنسية فى جسم الرجل أو المرأة

إن أظهر ما تظهر الملاحة من معارف الوجه فى العين والشفة لانهما الجارحتان اللتان ترتسم فيهما حالة النفس واحساسها بغاية الوضوح والجلاء . وبهما تختلف أمة عن أمة وجنس عن جنس . فالعربى المصرى والصينى والانجليزى والالمانى وغيرهم من الملل والامم يتماثلون فى كثير من ملامح الوجه وقسماته ويندر ان يتماثلوا بالعيون والشفاه . وكذلك الرجل والمرأة . وأصدق وأوجز ما يقال فى هاتين الجارحتين انهما نافذة النفس فمنها تطل على العالم ومنها يطل العالم عليها ولعل ما تكشفه منا للناس أكثر مما تكشفه من الناس لنا

لابد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس لان نظرة العاقل غير نظرة المجنون . وقل مثل ذلك فى الغادر والامين ! والفظ والوديع والسقيم والسليم ، والشهوان والعفيف ، فان لكل منهم نظرة غير نظرة الآخر . أما صلة الرأس بالجسم وما يندمج فيه من الطبائع فمعلومة ملحوظة . فالعين بهذه المثابة هى عنوان صفة النفس ومزاج الجسد

ولا بد من صلة بين الشفة والاحساس لان الشفة هى ملتقى أعصاب الوجه وهى أدق أعصاب الجسم . فلا تهيج فى الجسم هائجة ولا تسكن به ساكنة إلا بدا لها أثر على الشفة ، فتفتر أو تتهدل أو تنقبض أو ترتجف . وترى الاحساس فى الشفة يتوق الى مقابلة مثله لان الاحساس يبلغ فيها أشده — وهذا هو الميل الى اللثم والتقبيل — نعم ان الاعضاء كلها تميل الى المماسة ، ولكن الميل لا يكون الا على قدر احساس كل عضو . فلا تميل اليد الى اليد كميل الشفة الى الشفة لان الفرق بينهما فى الاحساس كالفرق بين المصافحة والتقبيل . وقد وضعت هذه الحساسية فى الفم لانه هو باب الجوف ، والجوف بحاجة الى حاسة ظاهرة تجيد له جس الاشياء قبل وصولها اليه . وقد ترى الاعمى لا يعتمد فى جس الاشياء الا على شفتيه لانه حين فقد البصر وأصبح معتمده على الحس وحده لا يشعر فى جسمه بما هو ألطف على المس من شفتيه

فالشفة هى ترجمان الاحساس ومجس العواطف . واذا كان فى الانسان خاصة تتصل بالاحساس كان أحرى الجوارح ان تظهر عليه تلك الخاصة الشفة . فقليلا ما يلتبس عليك الصابر الكظوم بالقلق اللجوج أو الاريب الكيس بالحميقه الابله ، من التأمل فى شفاههم وهيئة افواههم . واذا التبسوا عليك ساعة الهدوء والصفو لا يلتبسون ساعة الغضب والاهتياج

ولرب وجه صبوح جميل يروقنا استواء خلقه واعتدال تقسيمه ويحيرنا نقد معارفه وقسماته . ولكننا يؤلمنا أن لا نتملى من ذلك الوجه بحظ الاستحسان الذى شوقنا اليه منظره ووجه أقل منه جمالا

وصباحة وأخفى روعة ورواء وهو يسبينا ويثير بلابلنا ويستولى على اعجابنا . وقد ننسب ذلك احيانا الى اختلاف الاذواق أو خفة الدم ولو انعمنا النظر فى ذينك الوجهين لم يطل بحثنا عن السبب وعلمنا ان ما نسميه تارة باختلاف الاذواق وتارة بخفة الدم هو معانى تضمنتها العيون والشفاه وليست من جمال الصورة . على انها هى شطر الجمال الاكبر وهى التى تفيض على ذلك التناسب الهندسى المملول روحا حيا جذابا . ان لكل عضو جماله الخاص به وجمال العيون والشفاه عام لا يجمل الجمال الا به . ولو نظرنا الى مزية فى العيون والشفاه تجعل لها هذا الشان فى تقدير الجمال غير اتصالها بالاحساس ذلك الاتصال الذى المعنا اليه لما أبصرنا لها أى مزية سواها . فلماذا لا نقول ان الاصل فى حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم باظهر أجزائه للناظرين ؟ ؟ أفى ذلك بخس للجمال ؟ ؟ ما الجمال الا صبغة لا تفارق الجسوم ، فكيف نوفق بين احتقار الجسم وتنزيه صبغته ؟ ؟ هذا كلام لا يرضى به عشاق الجمال ولا يروقهم ان يكون حبهم له نوعا من جس النبض وفتاً من الفراسة . فان كان ارضاؤهم لابد منه فليذكروا ان جمال اجدادنا لا يستحق أكثر من ذلك . واننا لم نرث جمالنا وعواطفنا من غير أولئك الاجداد

الحرب

الانسان أعرف بالحرب من أن يعرفها . وأخبر باهوالها من أن يبغض فيها . وهو لا يخوض غمراتها ويقتحم حـوماتها الامستثار العاطفة غير مختار العقل

والحرب عريقة فى الطبع عراقة الحياة . فانها شبت من يوم تعدد الطالبون لمطلوب غير متعدد . واختلف غرضان فى سبيل واحدة . بل انها لا قدم من ذلك . فانها نشبت بين ضوارى الغبراء . وكواسر الهواء . وسوابح الماء . وشجرت بين الوحش والانسان زمانا قبل أن تشجر بين الانسان والانسان . بل لقد وجدت حيث لا يوجد حس ولا حياة وظهرت بين النبات كما ظهرت بين الاحياء

وهى مع قدمها وكونها غير شاذة عن الطبع ولا غريبة عنه . لا يزال الناس يختلفون فى لزومها أو عدم لزومها ويجادلون فى نفعها او ضرها وهل هى مشروعة سائغة أو أنها محض قوة غاشمة ظالمة

وترى انصارها يعتمدون على انها مظهر من مظاهر تنازع البقاء وأن النوع البشرى كالشجر يحتاج الى التشذيب آنا بعد آن والا نمـا عدده وملا ت شعاب الارض شعبه . وأنها فوق ذلك مرتزق الالوف من الجنود والصناع وتجار المعادن والمناجم . وأنها تهز أريحية النفس وتشب فيها النخوة وفضيلة المفاداة بالحياة . ثم يقولون انها قوام روح العصبية فى الامة ومساك النعرة القومية . وأن مجد كل أمة انما هو فى ذكرى حروبها وتاريخ غاراتها . ولولا ذكرى هذا المجد لخملت روح

الامم وأنبتت الوشائج بين ماضيها وحاضرها . ولعل هـذا القول الاخير أقـوى ما يعتمدون عليه وأشبهه بالصدق والصواب فان العصبية فى الامة لازمة لزوم شخصية للفرد . والأمة لا عصبية لها صغيرة فى عينى نفسها . ذليلة بين جارتها . سريعة الاستكانة الى الحكم الاجنبي . ومتى كانت الامة منحلة العصبية فأحرى ان لا تكون لها تجارة خاصة بها . أو صناعة تنمى اليها . أو يكون لها تاريخ تعتز به . وكرامة تغار عليها وفقد العصبية فى الامة انما هو احساس منها بالضعف والخور واعتراف منها بالتخلف عن سواها فى فضائل الجنسية والقومية ولا ينتاب هذا الضعف الا أمما توالى عليها الحكم الاجنبى وألفت أن ترى من أبنائها حاكما تكبره أو عظيما تلتف حوله . فيصبح كل ما هو من جنسها صغيرا لديها وكل ما هو غريب عنها موقرا مرغوبا فيه

وقد استعان زعماء السياسة وأئمة النهضات الاجتماعية بهذه الفضيلة على نشر دعوتهم وحفز الامم الى أغراضهم ولو بحثت عن سر قيام الدعوات الدينية لما وجدت الا أنه اعتقاد راسخ فى قلوب اتباعها بانهم على الهدى وأن كل من خالفهم على الضلالة وانهم وحدهم أولوالحظوة عند الله . واما من عداهم فمطرودون من ملكوته . محرومون من رضوانه

بيد ان لهذه الفضيلة شططا يضحك أحيانا وقد يفضى بها أهلها الى حد المغالاة . فأنك لا تعلم كيف التقى فى روع الانجليزى مثلا انه أرقى الناس أخلاقا وأسماهم محتدا وأنبلهم سجية . ولا كيف يعتقد الفرنسى أنه خير من كل المانى . أو كيف أن الالمانى يرى الفضائل كلها مجتمعة فيه وأن ما عند سائر الامم منها فضلة كالصبابة فى الكاس

على أنها مغالاة تحتمل الى جانب ما للعصبية من النفع . وقد ينتهى ضيق هذه العاطفة الى السمة . ويؤول أمرها الى التسامح لا سيما فى هذا العصر الذى كثر فيه تواصل الاجناس المختلفة

***

فان كانت الحرب كما يقولون مبعث هذه العصبية فرحبا بالحرب وأهلا . وان لم تكن الحرب وسيلة الى أحياء روحها وتماسك أجزائها فالحرب قوت لا غنى للامم عنه . ولا قوام لها الا به

ولكن ما أبعد هذا القول عن الحقيقة . فان لدينا ألف وسيلة الى حفظ العصبية قد لا تكون عصبية الحرب الا أوهاها سبباً وأوهنها أثراً . والا فما هى عناصر العصبية الحربية ؟ ؟ أليست هى اعتدادا باحكام التسديد ووفرة الذخائر ؟ ؟ وفخرا بكثرة الجنود ومضاء الاسلحة ؟ ! وما هى الشجاعة العسكرية ؟ ؟ أليست هى أقدام الاعمى على الهاوية ؟ ؟ أو ليس المسوق مخفوراً الى ساحة الاعدام . أشبه فى شجاعته بمن ساق مرغما الى ساحة القتال ؟ بل ما قيمة مفاداة الجندى بنفسه . اذا لم تكن له يد فى اختيار الغرض يفادى بنفسه من أجله بل ما أشبه الجندى فى هذه الحالة بالجلاد الذى يقتل كل من يقدمونه اليه ولا يعنيه ان كان مجرما أو بريئاً . أو كان القاضى عادلا فى حكمه أو جائراً

ان للامم مندوحة عن هذه العصبية الشوهاء . بعصبية الادب السمحاء فان فى كل امة رجالا رفعوا منار ذكائها وزانوا تاريخها بمثل ما يزين السماء نيراتها . فاذا فاخر الانجليزى بشكسبير تباهى الالمانى بجيتى وتاه الايطالى بدانتى وازدهى الفرنسى بهوجو . ولقد تردد حول هذه الاسماء صدى متتابع الدوى . وعلى صريف الاقلام بذكرهم .

واشتغل بال الامم باقوالهم ، فدل على ذلك أن سيرة هؤلاء الابطال ضمينة بأن تملأ حيز العصبية من اذهان الناس ، وأنهم أقدر على توجيه الانظار اليهم من أمثال كرومـويل وفردريك العظيم وغـريبالدى ونابليون ، وهى عصبية لا تثير فى ذاكرة الشعوب ضغينة ثأر أو حزازة انتقام ، وانما هى آصرة تؤلف بين قلوبهم . وتأخذ بايديهم الى التصافح وبنفوسهم الى التآخي والتسامح . وتقودهم لا الى ساحـة القتال . ولـكن الى باحة المودة والسلام

وهذه العصبية وما شابهها من العصبيات الاقتصادية أو العلمية . هى الجديرة دون سواها بهذا الجيل . فقد مضى زمان الامم الفاتحة ، وليس في العالم ليومنا هذا أمة تريد أن تنجب مثل يوليوس قيصر أو نابليون بونابرت أو محمد الفاتح أو طارق بن زياد لانها فى غنى عنهم ولا نفع لها من أمثالهم . إن اليوم الذى تهيئ له دول اوربا ما تهيئ من آلات الفناء والموت ، لن تشرق له شمس . وما على المدينة أن ترهب اليوم جيشاً واحـداً هو جيش الرياء والنفاق الذى تمكن من الطباع والاخلاق وليست بها حاجة الى شجاعة غير الجرأة فى الرأى والصبر على الشدة وآلام النفس ، فنحن فى حرب مع الرذيلة دونها كل حرب فتكا وهولا . وليست هذه الحروب الدموية الا دخان تلك الحرب المستطير شررها فى أعماق نفوسنا . والباسل الباسل من وفق بـين سيرته وسريرته ورفع راية السلام بين لسانه وضميره ، فان كانت الحرب تثير نخوة الوحشية والقسوة ، فهذه الحرب تبعث فى الضمير نخـوة الانسانية والمروءة

اقدر فى حكم الحقيقة وأنفع ، وأعلى فى معارج الفضيلة وأرفع ،

رجل يتجرع غصص العذاب فى سبيل رأيه ، ويتجاوز عن راحته فيما يعتقد أنه الحق والعدل . فان الصبر على جرح فى النفس أدل على قوة الرجل من صبره على جرح فى الجسد ، وان دابة المركبة لتحمل من الجراح ما ينوء ببعضه أجلد الناس وان كان هرقلا ثانيا

***

يقول أنصار الحرب : وماذا نصنع بالالوف المؤلفة ممن لا مرتزق لهم الا من الحرب أو من صنع أداتها وآلاتها ؟ ؟

نقول اذا لم يبق من مسوغات الحرب الا هذا فاصنعوا بهم ما أنتم صانعون بتجار المحظورات أو بالطرارين واللصوص ومزيفى النقود وأصحاب الاحتيال ومن لا معاش لهم الا من الفسوق أو الاغراء عليه أتراكم تحملون القانون على اباحة الجرائم لان طائفة من الناس لا مرتزق لهم الا منها ولا معاش لاولادهم ونسائهم الا بمزاولتها ؟ ؟

بل نقول لهم : اصنعوا بهم ما أنتم صانعون بالايامى والايتام ممن تقتل الحرب عائلهم وتتركهم عالة على المجتمع ! ؟ وما أنتم صانعون بالعمال والزراع الذين تعطل عليهم الحرب مرافقهم وتمسك عنهم القوت والنفقة . وربما كان هؤلاء . أكثر عددا ممن يشتغلون بصناعة السلاح وحمله

على أن الدنيا لا تضيق لا بهؤلاء ولا بأولئك . والمواد الاقتصادية كالشجرة ، كلما انقطع منها فرع نبت فرع فى مكانه ، وقد كان استخدام البخار سبباً فى ابتداع آلات تعمل الواحدة منها عمل المئات والالوف من الصناع ، فما أغنت هذه الآلات عن الصناع ولكنها زادت الحاجة اليهم : فأصبح عددهم اليوم أضعاف ما كان قبل

استخدام البخار . واذا عرفنا أن الجنود انما يؤخذ أكثرهم من الفلاحين وانهم يعودون الى فلاحة الارض بعد صرفهم من الجيش ، وجدنا لنا مخلصا من الحيرة فى أمر معاشهم ، ورأيناهم فى غنى عن شفقة أنصار الحرب واهتمامهم

***

ولكن أليست الحرب ظاهرة طبيعية كما قالوا ؟ ؟ وهل هى غربال يتنخل اللباب فيحفظه ويحجز الخثالة فينبذها ؟ وهل هي الا تلاحم بين القوى والضعيف ، يظهر فيه القوى الصالح ويتلاشى الضعيف الفاسد ! !

نقول هذا كلام شبيه بالحق ولكنه كذب . فلقد كانت الحرب طبيعية عادلة فى زمن من الازمان ولكنها فقدت معنى العدل فى هذا الزمان

كانت عدلا أيام كان أصلح الامم للبقاء أمضاهن سلاحا وأكبرهن جندا وأمنعهن حمى ، أما اليوم فالصلاح للبقاء شئ غير المهارة فى القتال . والانتخاب الطبيعى يأخذ مجراه دون أن تقوم دولة على انقاض دولة ، أو تتقمص أمة فتية روح أمة بائدة ، ولو أن الروسيا أغارت غدا على سويسرة مثلا لقهرتها وأفنتها ، ولكن أيهما أوفق للوجود شعبه ومن منهما أنفع فى أرضه بقاؤه ؟ ؟

فالحرب اليوم ليست محكا يظهر منه النفيس من الخسيس . ولكنها ميزان يرجح فيه أثقل الكفتين جرما وأكبرهما حجما . وليس هذا من العدل فى شئ ولكنه تنازع اصطناعى لا عمل للطبيعة فيه الا من بعض جهاته

ولكن هناك نفراً من الفلاسفة ملكته الرأفة بهذا النوع المسكين . فأشفقوا أن يربو عدده وينمو نسله . فتضيق به وسائل الرزق ويفضى الضيق الى الموت جوعا . فهم لا يرون فى الحرب بأسا. بل هى فى مذهبهم لازمة لتعليم النوع أولا فأولا . وهم يرحبون بكل ما ينقص هذا النوع ويقلل ذريته . ولا أدرى لم لا يرحبون بالاوبئة والطاعين ؟ ؟ ومالهم لا يجذمون أيدى الاطباء الحبثاء الذين ينقذون الناس من الهلاك . كان هؤلاء الاطباء يتركونهم ليموتوا صبراً يوم تعم المجاعة ويبعد الزاد من هذه الدار ؟ ! !

بل لقد تمادت الرحمة بهؤلاء الفلاسفة الابرار . فأشار فريق منهم بخصاء الذكران من العالمين . وأشار فريق سواه بقتل الضعفاء . وقال فريق ثالث بل نوصيهم بالاقتصاد فى النسل ونعين لكل عائلة عدداً من الاولاد تتجاوزه . الى آخر ما قالوا

ظهر مالثوس صاحب هذا المذهب فى القرن الثامن عشر فطفق يجمع ويطرح . ويضرب ويقسم . ويحسب نتاج الارض فى الاجيال المقبلة كانه خازن أرزاق الله . ويحصى ما تحمله بطون الغيب من الاجنة كانه كاتب عالم الذر . فهداه حسابه الى أن النسل يتضاعف كل خمس وعشرين سنة . وأن ثروة الارض لا تزيد فى هذه المدة الامرة واحدة أى أنها تنمو على نسبة حسابية مطردة . فظهر له من هذا الاحصاء أن نسبة السكان الى الثروة ستكون بعد ثلاثة قرون كنسبة ٤٠٩٦ الى ١٣ . فأنذر بالويل والخراب . وصاح بالناس لا تناكحوا ولا تناسلوا الا بحساب

ولقد مضى نصف هذه القرون الثلاثة تقريبا . ولم تجدب الارض

ولا ضاقت بساكنيها . ونحن نورد هنا ماقاله هـنرى جورج فى كتابه « التقدم والفقر » ردا على رأي مالثوس هذا . قال :

« اذا أردنا أن نتخذ لنا مثالا من اسرة متوفـرة لديها أسباب البقاء والجاه . وقد عبرت أمدا مديدا فى بلد لا تتغير فيه أحـوال الاقتصاد ولا تطرأ على بيئته الانقلابات . فعلينا أن نرجع الى الصين »

لا تزال اسرة كنفشيوس فى تلك البلاد باقية تتمتع بالرعاية ومزايا الراحة والبقاء . وليس فى الصين وراثة شرف فى غير هذه الاسرة . فاذا سلمنا بحساب مالثوس وجب ان يـكون عدد افـرادها فى عهدنا هذا :

(٥٢٨ ر ٧١٠ ر ١٩٨ ر ٦٧٠ ر ٧٠٩ ر ١٠٦ ر ١٩٣ ر ٥٥٩ ر ٨٥٩)

ولـكن ذرية كنفشيوس لم تبلغ من هذا العدد الذى لا يتصوره العقل الا احد عشر ألف رجل أو نحـو اثنين وعشرين ألف نسمة . بعد أن مضى على وفاته فى عهد الملك كانجهى ٢١٥٠ سنة »

فانظر شطط هذا الفيلسوف وزيغ حسابه . وكذلك لا يزال الزلل نصيب من يجترئ على الغيب ويتحكم فى نظام هذا العالم الزاخر

للمؤرخ أن يقرر أن الحروب الماضية أقلت النسل — وان كان فى الباحثين من يزعم أن التناسل يكثر عقب الحرب كثرة لا نظير لها فى سائر الايام — وله أن يعدها ضارة من هذه الوجهة او نافعة . ولـكن ليس له ان يتخذها منجلا يخترط به ما يشاء من النوع الانسانى . لا سيما اذا كان من الذاهبين الى ابقاء الاقوى وافناء الضعيف . فان الحرب تبقى على العاجز الجبان ولا تقضى الا على الفتيان الاشداء

***

لا تأمن صائحاً يصيح بنا : لقد علا غطيطكم فى النوم . وطال بكم الحلم . ونحن نسمع كل يوم أن الحرب يتقشع غبارها وتخبو نارها ثم لا نرى مع ذلك الا خربا بعد حرب وفتنة تتسعر فى أثر فتنة

وهو اعتراض وجيه اذا كان المبشرون بالسلم قد زعموا أن المريخ (١) قضى نحبه وانه لن يسفح بعد اليوم دم فى ميدان ولكنهم لا يزعمون شيئاً من ذلك بل يقولون انه ان كانت الحرب تبقى ببقاء دواعيها فقد وجب أن تزول لزوال تلك الدواعى

فان الحرب لا تنشب اليوم للذود عن ذمار . أو لانقاذ مملكة أو لاستنهاض النخوة المليـة أو ما شا كل ذلك من المعاذير التى يعلنها الساسة ويبطنون سواها وقدلا يكون المحرك لها محض الرغبة فى توسيع نطاق الدولة أو انماء ثروتها كما يرى بعض من يظن أن مصلحة الامة المادية هى السر الخفى لكل حركة دولية فى هذا الزمان . ولا نبتعد عن الصواب اذا قلنا انه لولا مطامع أصحاب رؤس الاموال وما آرب الساسة لما ارتفع سلاح فى أكثر هذه الحروب التى دارت بين الامم الكبرى والامم الصغرى فى هذا الجيل

فان لكبار الماليين نفوذا قويا بين رجال السياسة . اما لانهم يسعفونهم بالقروض فى الازمات السياسة . أو لانهم يمدونهم بالمال فى المنافسات الانتخابية . فاذا طمحوا الى غرض من أغراضهم لم يعثر عليهم اقناع ولاة المملكة بمعاونتهم فيه . واستخدموا الصحافة بالرشى والجاه لتهيئة الرأى العام لقبول مايقترحون عليه . فلا يلبث هؤلاء الصحفيون أن يستثيروا حماس الشعب ويعبثوا بعواطفه الدينية أو الجنسية . وما

---

(١) المريخ اله الحرب عند قدماء اليونان

هوالا أن تسرى المقالة بين الجمهور حتى يهب صارخا بالحرب . ويقال حينئذ أن الامة تريد القتال وانه لا قبل للحكومة بمعارضتها . فتحرك الجيوش . وتذهب النفوس هدرا وتنفق الحكومة من مال الفقراء ونفوسهم اضعاف ما يبذله أولئك الاغنياء ثم لا يغنم من تلك المجزرة الا تاجر جشع تحوى خزانته المليون ولكنه يطمع فى المليونين . أو وزير يرمى الى تمكين حزبه . أو ملك يريد أن يضيف الى اسمه لقبا فارغا يذكر به فى التاريخ

أما العامل الفقير الذى يتظاهر الساسة بالعناية به ويقولون انهم انما يرفهون عنه بالتوسع فى الاستعمار وشن الغارة على المستضعفة من الامم . فسواء لديه أكانت دولته تملك ما بين لا بتى الارض أو انها واقفة حيث هو يكدح ويكد ، فانه يعول فى كل حال على قوة ساعده . ويعتمد فى كل بلد نزح اليه على جهد يده . ولو أن اليابان كانت تملك الولايات المتحدة لما زاد أجر العامل اليابانى دانقا عما يناله الآن بغير معونة حكومته

ولقد كان من بلايا الشرق أن تتوجه اليه مطامع أولئك التجار الاشعبيين . لنزارة أجور عماله . وخصب تربته وقلة المزاحمة الاقتصادية فيه . وجعل أهله بالانتفاع من ينابيع الثروة المتفجرة فى أرضهم . فاذا نزل واحد منهم بالبلد الشرقى كان ذهبه نذيرا برصاص دولته . وأبى الا أن يربطه الى وتد من الاستعباد والمذلة كما تربط البقرة الحلوب

ولو ان العامل الشرقى أحس بمعنى الحياة وجاشت فى نفسه مطالبها لما قنع بما دون أجر معامل الغربى ولا بقى تجار اوربا أموالهم فى بلادهم بل لو كان الشرقيون يستثمرون مواد الثروة فى اقاليمهم . ويستنبطون

الرزق من مناجمه عندهم . لما اتسع بينهم موضع لنزيل يمتص دماءهم ويسلبهم ما لهم واستقلالهم . ويجعلهم عبيدا له والله قد خلقهم احرارا

ولقد طالما سمعنا الكاتبين منا يقولون : ان الغرب قد غلب علينا بأساطيله ومدافعه . فلنجالده بسلاحه ولنعد له من عدة الدفاع مثل ما يهاجموننا به

ألا انها نصيحة لا ينتفع بها الا أمة أو أمتان لم يغلل الغرب أيديهما بقيود الاستعمار . ولا تزال فيهما بقية رمق من الاستقلال تمكنهما من استجماع القوة . والتأهب للدفاع عند الحاجة

ولكن أى نصيحة لديهم يدخرونها لتلك الامم التى سبق عليها حكم القضاء وطال عليها الامد فى الاسر ؟ ؟

لا والله ما غلب علينا الغرب الا بفككك عصبيتنا وصغر معنى الحياة فى اذهاننا . ان فى الامم الشرقية المستعمرة من السكان والجنود وأهل البلاد أضعاف ما فى الامم التى تستعمرها فكيف يتصور العقل أن الغرب انما سادوا على تلك البلاد بالسلاح وكثرة العدد

ليس للشرق الا أملان فى النجاة من آفة الاستعمار ، أحدهما منوط برقى العالم عامة والثانى منوط برقى الشرق خاصة

العالم اليوم مستغرق فى عبادة الدينار . ولكنه دور سينقضى كما انقضى ماقبله من الادوار . فان للانسانية فى كل فترة من الزمن روحا تتشجع بها ، فلا تصدر أعمال الامم والافراد الا عنها فانقضى دور الغزو ثم انقضى دور الفتح ثم انقضى دور الحروب الدينية . ونحن اليوم فى دور المال

أفتقول اذن ان هذا الدور باق أبدا ؟ ؟ وهل هذا نتيجة تعاقب

الاميال على الانسان ، وغايته التى ليس وراءها غاية ؟ ؟ ألا يمكن ان تكون هذه النتيجة مقدمة لنتيجة غيرها أجل منها وأحسن عقبي

ان كل مانراه ونحسه يشير الى اننا فى دور انتقال وشيك الزوال .

وان العالم سيصل الى ما يرجو من السعادة ولكن من طريق المال

فالامم الكبرى تستكثر من السلاح والجنود لتحمي متاجرها ومصنوعاتها ولكن التبارى بين الامم الصناعية شديد فى اتقان تلك المصنوعات . وسيأتى يوم لايغنى عن السلعة فى سوق التجارة الاجودتها واتقانها . فلا تستطيع كل أساطيل البحر ومدافع البر أن تروج سلعة رديئة أو تبخس سلعة جيدة . ويومئذ يكون التزاحم بين مصنع ومصنع لا بين حكومة وحكومة ، يستعين كل منهما بعساكره على ترويج سلعه

ان حماية الحكومات لمتاجرها هى التى تصبغ المنافسات التجارية بصبغة دولية . فاذا تخلت الحكومة عن التجارة فالى كل مصنع بذاته ينافس فى السوق العامة ، وأصبح سواء لدى التاجر أن يبيع سلعته فى فى انكلترة أو المانية مادام يعتمد على ذمته ومهارته ، واتسعت الارض أمام كل ذى حرفة يحل منه حيث طاب له الكسب ، ويكون له فى كل أرض وطن اذا شاء

يومئذ لا يذهب التاجر الى المستعمرات وهو ينظر وراءه الى أسطول دولته ، ولكنه ينظر كيف يفتق بضاعته من معمل تروج سلعه ويقبل الناس مصنوعاته

وليس فى الناس الا فريق واحد لاتروقه هذه الحرية التجارية . ونعنى به أصحاب المصانع الذين يسخرون قوة حكوماتهم لفتح الاسواق فى وجوه مصنوعاتهم . ولكن هذه الفئة لاطاقة لها بصد التيار الجارف

وقد أخذت تضمحل سلطتها ويشاركها فى نفوذها قوم لامصلحة لهم فى احتكار الاسواق : وهم أحزاب العمال والزراع وغيرهم ممن يعيشون فى ظل كل راية فى المعمور

لقد بدأت هذه الحركة المباركة تظهر فى تكاثر المهاجرين من كل مملكة فى طلب الكسب . واباحة الحكومات حقوق التوطن لكل من قضى فى بلادها زمنا محددا . ورأينا بعض الحكومات تطلق الحرية للتجارة وتبتعد عن الاشراف عليها وسينتهى ذلك لامحالة الى الوطنية العامة وانفراد التجارة بنفسها فى العالم أجمع

ومتى كان الرجل لايحرم فى أرض الغربة حقا يتمتع به فى وطنه . فلا حاجة بالحكومات الى الاستعمار . ولاحاجة بالرجل الى حماية حكومته

* * *

ومن ثم يصير تنازعا طبيعياً يبقى فيه الاصلح للبقاء حقيقة . ويبطل الاستعمار فيبطل كل مانشأ بسببه من الخلاف بين الدول الاستعمارية فان الخلاف بين هذه الدول قد انقطعت أسبابه الا من هذه الوجهة ، ولولا الاستعمار لما تأهبوا للحرب هذه الاهبة . فان هذا العصر أندر العصور حروبا وان كان أكثرها آلة حرب ، وتفننا فى أساليب القتال . وليس هذا بالامر الغريب فان زيادة أداة الحرب قد زاد نفقاتها أيضا . واشتباك المرافق الاقتصادية جعل الحروب أعم خسارة وأبلغ ضرراً من ذى قبل ، وهكذا يؤدى الاشتباك القليل فى المرافق الى التنازع والخلاف ، فاذا تشعب وتمكن كان أقوى ضمانة للسلم والوفاق . وسيتشعب ويتداخل حتى تقع الضربة فى البلد فتضرب البلدان كافة . فاذا صرفنا النظر عن هذا التقدم المادى الى التقدم المعنوى رأينا أن قيمة الحياة تعلو فى نظر

الانسان وانه يفهم يوما بعد يوم أنها كل رأس ماله من الوجود ، وانه متى أضاعها أضاع كل شئ بالنسبة اليه

* * *

هنا هو أملنا المعقود برقى العالم . أما أملنا المعقود برقى الشرق فيتحقق يوم يدرك الشرقى معنى الحياة وتتنبه فيه روح العصبية . فلا يكون تسخيره أيسر على الماليين أو أرخص نفقة من تسخير الغربي . ولا يسهل على كل طامع أن يلتهم ماشاء من ثروته . والامر بين اثنتين : فاما أن الشرق سيبقى هكذا الى الابد . أو انه سيتقدم مع الزمان

فاما بقاء نصف النوع الانسانى على هذه الحال من الانحطاط والمهانة أبد الابدين . فمحال لا يجوز فى نظر العقل وأما انه يتقدم مع الزمان فهذه سنة ليس فى وسعه أن يقاومها وليس فى وسع أحد ان يحول تيارها عنه فنحن الى الرجاء أقرب منا الى اليأس . وهكذا ينبغى أن نكون

ولا ريب أن ذلك اليوم سوف يكون آخر يوم من عهد المال واول يوم فى عهد الحق والاخاء والسلام

ان تلك الساعة آتية لا ريب فيها ولكن كيف ومتى ؟ ؟

قل علمها عند ربي

النجاح

ملخص من كتاب الغرائب لماكس نوردو

النجاح على كونه طلبة العامل والعاطل ، ومنية الكبير والصغير فقليلا ما كتب فيه الكاتبون ، وقل فى هذا القليل من أصاب وأفاد ، لان للنجاح صناعة يموت أكثر الناجحين على سرها . أو يبوحون ببعض السر ويكتمون بعضه خجلا أو استئثارا . الآن نورد فى سلك هذا الفصل مسلك التعريض باسباب النجاح فى عصرنا هذا ، فجرد وسائله ولم يأت فى جده وهزله بكلمة لايؤيدها الواقع أو يقوم عليها الشاهد من العيان . ولكنها حقائق لا يقبلها ولا يثق بها الا رجل أفلح او رجل أخفق. فأما المفلح فيعلم بم نجح ، وأما المخفق فيعلم لم لم ينجح ، وأما الذين هموا بالنجاح ولم يمارسوه ، وعشوا الى ضوء ناره ولم يواقعوه ، وحلموا بادراكه ولم يحققوه ، فاولئك يثقون باحلامهم وأمانيهم أكثر من ثقتهم بهذه الحقائق المؤيدة وان كانت غير شريفة ، والتجارب الصعبة على كونها أسهل من الشرف فى أحراز النجاح

وقد أفرغه فى قالب الدعابة والسخرية ولكن فيه من روح التذمر والنقمة مايحسده عليه شوبنهور أمام الساخطين مع انه استهل هذا الكتاب بفصل مسهب فى التيمن والتطير فكان زبدة كلامه ان التيمن أعمق فى الطباع من التطير ، وان النفوس أسكن الى حسن الظن بالناس والحياة منها الى سوء الظن بهم .

ولما ظهر هذا الفصل حسبه بعض الجهلاء جادا فى قوله وفهموا أنه

يجيز استخدام هذه الوسائل ولم يفهموا أنه ينكرها ويشهر بها ، فقرعوه أقبح التقريع وسبوه فى أخلاقه ومبادئه فذيل الفصل فى الكتاب بكلمة قال فيها انه كان يود لو أتيح له نشر صور هؤلاء الكتاب لانهم ولاريب من عجائب المخلوقات فى هذا القرن العشرين

وكأنهم استغربوا من الرجل مجاهرته بان النجاح يغتنم أحيانا بالخداع والتلبيس — استغربوا منه ذلك جريا على مذهب المتشددين فى تربية الناس الى من يتشدد فى تربيتهم ، والقائلين بتجاهل مثالب المجتمع وهم من حسور النظر بحيث لايعلمون مثالب المجتمع أو محامده وطالما سمعناهم يحتمون على الكاتب اذا كتب فى النجاح ان ينبه القراء الى التعويل على انفسهم والى تحمل أسباب النجاح وابتغاء الوسائل اليه قلنا ان كان هذا واجبا فأوجب منه ان ننبه الامة الى أن المعول فى نجاح تلك الوسائل انما هو عليها . فان زمنا من الازمان لم يخل من وسائل للنجاح كائنة ما كانت . وانما على الامة أن تحذر لئلا تكون تلك الوسائل مما لايحذقه الا أرازلها ، ومن لو نجحوا لاضرهم نجاحهم بها ، وكان تقدمهم وبالا عليها ، ولئن كان من واجب الفرد أن يسعى ليستحق النجاح فلا نزاع فى ان واجب الامة ان تسعى لينال النجاح من يستحقه . اذ ليس كل من ينال النجاح يستحقه . ولا كل من يستحق النجاح يناله

ولو كان العامل وحده هو المؤثر فى عمله لازمته وحده تبعة النجاح أو الخيبة للنجاح ولكن أركانا هى العمل والعامل ووقت العامل ومكانه . فربما كان العامل واحدا فى البلدين فينجح هنا ويحبط هناك وربما كان العامل بعينه ولكنه ينجح فى وقت ويحبط فى وقت آخر . وقد تكون البيئة واحدة والعمل هو هو فيقدم عليه اثنان يظفر أحدهما ويفشل

الآخر . فلايجوز انيتجه اللوم كله الى العامل . فربما كان الفشل فى بعض البيئات اشرف للرجل وأصون لمروءته وأدل على قدوته الصحيحة من نجاحه . وهؤلاء النشوئيون وضعوا قاعدة بقاء الانسب لايتخذون النجاح معيارا للافضلية ولايقولون ان بقاء الانسب معناه بقاء الارقى والاحسن بل قد يكون الامر على نقيض ذلك . قال سبنسر : « ليس المراد بقانون بقاء الاحسن أو الاقوى هذا المعنى الذى تنطوى عليه حروف هذه الكلمات فى عرفنا . ولكن المراد به بقاء أولئك الذين هم أصلح بتركيب أجسامهم للحياة فى البيئة والاحوال التى وضعوا فيها . وكثيرا مايتفق اذ ماهو أحط واصغر فى التقدير الانسانى يسبب البقاء »

* * *

ونحن بادئون بتلخيص ذلك الفصل سأل نوردو : —

« اى خية نتوخاها من هذا التعليم المدرسى ومن عامة اصول التربية والتهذيب ؟ قال لا لبس فى جواب هذا السؤال . اذ لاينبغى ان تكون الغاية القصوى من ذلك الا أن نجعل الحياة أوفق لنا بتعميقها ، ومضاعفة خيراتها ، وتزيين ظاهرها وباطنها . واذا التمسنا الايجاز فان تزيدنا وتزيد المجتمع الذى نحن فيه رغدا ورفاهة . وليس لهذه الحقيقة الاوجه واحد فأمامن يخالف فى ذلك من علماء التربية فهم يقعون دون المرمى . وربما قال أحدهم أن غاية المدرسة هى تكوين الشخصية . فلعمرى مامعنى هذا الكلام اذا نحن أنعمنا فى تحليل ؟ماكانت الشخصية لتصب فى قالبها الجمال محياها أولترق نظر الناظرين اليها كما يصب التمثال . ولكنها خلق يرام به شئ من النفع . وما المثابرة على الغرض ، والثبات فى الاعمال ، والاصرار على الرأى والصدق فى الرغبة ، والاقدام اذا أعوز الامر الى الخصام ،

الادرع يستلئمها الرجل وسلاح يتقلده فى كفاح الحياة وتنازع البقاء وهم يسلمون بأنها أخلاق تمهد لصاحبها الغلب على أعدائه ومنافسيه ، يقولون واذا شاء الله مرة أن يظهر الذى هو أدنى على الذى هو أعلى ففى هذه الاخلاق سلوة وشفاء لا لم الفشل وعون على الرضى عن النفس ، بل وعلى المباهاة بتلك الخصال التى نجم عنها اندحار المهزوم وخيبته

وربما قالوا أيضا ان الغرض من المدرسة انماء العقل ، وتقوية العزيمة وتهذيب المشاعر لتحس الطيب من الاشياء . فقل لى ماهو فحوى كلامهم هذا ؟ ؟ ان العقل ينمو ليتفهم به الرجل أسرار الطبيعة وأمزجة الناس فتمتع بما فى معرفة طبائع الاشياء وعناصرها من اللذة والغبطة — ذلك الى حدة تنتهى عنده لذة المعرفة وغبطتها . ثم يتذرع بها الى ذود الضرر عنه وجلب المنفعة اليه ، وأما العزيمة أو الارادة فانما يستحب أن تقوى ليدرأ بها مايؤذيه ويثبطه ، ولايقصد بتهذيب الاذواق واعدادها للاحساس بالجمال والخير الا أن تكون بابا يلج منه الى النفس مشاعر لاذة لها ، سارة لوجدانها ، فهل لهذا الكلام فحوى الا أن تصير الحياة أوفق للانسان ؟ ؟

قال نوردو فاذا نظرنا الى مدرسة اليوم بأساليبها وبرامجها أنرانا نجدها كافلة بهذه الغاية ، مفضية الى هـذه الجهة ؟ قال كلا فانها لاتخرج الا تلاميذ يطرحون سلاحهم للصدمة الاولى ، وكأن الذين سنوا طرائق التربية طغمة من دهاة الساسة أرادوا أن يستحوذوا على عروض الحياة ويحرموا منها الناس أجمعهم ، فاجتمعوا على ابتكار هذه الطرائق يعلمون الناس كيف يعجزون عن تحصيل تلك العروض ، وكيف يقنعون من الغنيمة بالاياب . ثم تطرق من هذا الى دعاية مفعمة بالجد والحقيقة

الدنيوية ، قال « بين النظام المدرسي الآن فجوة لايحسن أن تظل بعد اليوم فارغه . ولقد هوت حيناً باحلام كنت أرددها وكنت أمنى النفس بانشاء مدرسة تعلن للملأ جهرة انها لاتنوى أن تشتغل بغير آلات النجاح وتجهيز تلاميذها له ، ولاتأبه للخيالات المجردة أو تميرها جانبا من همها. وكنت أعلم ان أناس من عصريينا صعدوا سلم النجاح واقتعدوا كاهله ، وماحضروا فى مدرسة النجاح درسا ولافتحوا بين يدى اساتذتها كتابا ، ولكن هذا لا يقدح فى سداد الفكرة فقد ما نشأ فى أزمان الهمجية ، وفى أصقاع لاأثر لمعاهد العلم فيها ، رجال بذوا قرناءهم بالحذق والمعرفة معرفة حصولها بفطنتهم وجمعوها بطول الجد والمراقبة ، ولكنها طريقة فى العلم ما أشقها على الرجل المستقبل بأبحاثه ودروسه ، قال ولو التفت العصامى الذى اخترق فى الزحام سمته الى النجاح بسائق لدنى من نفسه لآسفه أن ينظر الى ذلك السمت فيرى كم زواية فيه سلكها ثم تنكبها وكم عقبة تسنمها ثم انحدر عنها ، وفيفاء مرملة جاس خلالها وكانت له ندحة عنها لو وفق الى دليل خبير ، أو وقف على مداخل تلك الانحاء ومخارجها

قال ولكنى أحجب النساء عن مدرستى لأنهن غوان عن نصائحها اذ ليس نجاح المرأة الا أن تكون حظية فى عين الرجل والنساء مدلولات بالفطر على ما يحجب فيهن الرجال . وما ظلمهن الا من يعلمهن الرسم والتاريخ وذبح اللغات الغريبة باللحن فى نطقها وما شاكل ذلك مما يرعب الرجال منهن قال : « وان المشارقة بما هدتهم اليه البديهة الموروثة ، والحكمة الاصلية قد تعودوا النظر الى المسائل بعين أسد وقريحة أصوب من أهل الغرب ، فما رأيناهم يعلمون البنت الا الغناء والرقص

والبراعة فى الضرب على أداة من أدوات الطرب، ويعلوهن قص القصص وخضب الانامل بالحناء ، وكحل العيون بالاثمد، وما يلحق بهذه الصناعة التى تتصبى اليهن الرجال وترغبهم فيهن بما تزخرف من محاسنهن وتزين لشركائهن فى الحياة فيتعلقون بهن . هذا وبناتنا المسكينات يعوقهن التعليم المدرسى عن مجاراة غرائز المرأة وان كانت هذه الغرائز أنفع لهن واجدى من جميع ما يلقنه أولئك الاساتذة سيان من يلبس النظارات منهم ومن لا يلبسها . وسرعان ما تستدير أحداهن المدرسة بمصاعبها وتكاليفها حتى تنطلق مع أميالها وتربى نفسها التربية التى خلقت لها ثم تتعلم بوحى من غرائزها كيف تنقش وجهها بالطلاء الاحمر وتدمه بدقيق الارز ولا تبالى أن تلبس أوقح الحلل وأبعدها عن الحشمة وان تمشى وتقوم وتجلس على هيئة تكشف لك سر ما أسخطك لاول وهلة من تفصيل ملابسها وان تقلب مروحتها برشاقة ذات معان والغاز ، وتعرف كيف تسبل اهدابها وتشيع اجفانها بغمزات تستهوى النفوس اليها، وتغرى الاهواء بها . وكيف تتخذ لوجهها أملح الحركات وألطف الاشارات ، وتتصنع سذاجة الطفولة فى نبرات صوتها وعبث الشبيبة فى غرارتها ، الى ان قال وماذا يعنيها من الناقدين ؟ ؟ فاما أترابها من النساء فهى لا تؤمل عندهن عطفا ولا مودة ، وهبهن قد عطفن عليها وألفن اليها بالمودة فأى ربح لها فى ذلك ؟ ؟ وأما الرجال فماذا عليها من أن يعرض عنها أحد العلماء أعراض الانكار والاستياء اذا كان فتيان النوادى وظرفاء الشبان يرصدونها بمجاهرهم ويلحظونها بعين الاعجاب والاستحسان ؟ وكما استثنى نوردو النساء من مدرسته كذلك استثنى منها أشباههن من الرجال اصحاب القامة المديدة ، والسبال المفتولة ، والطلعة الوسيمة، والهياكل الجسمية

وهم شبيهون بالنساء فى أن نجاحهم عند غير جنسهم . فكما أن المرأة لا تعول على رأى النساء فيها كذلك لا حاجة بالمرء الى التفاهم مع ابناء جنسه أو التعويل على رأيهم فيه .

وكذلك استثنى من مدرسته رجال العبقرية لانهم شواذ الناس وانما تشاد المعاهد للاوساط والانداد . واذن رجلا — كما يقول — مثل بيتهوفن كان يبلغ ما بلغه فى فن الالحان حضر مدرسة الموسيقى أولم يحضر . فاما الذين حرموا من المزايا ولم يحرموا نفسا تواقة الى الامتياز على الناس بطنطنة الابهة وفخامة الالقاب فأولئك الذين أفتح لهم أبواب مدرستى وأوصى رئيسها أن يقول لمن يضع ابنه فى كفالته : (تعال ياصاح ! ألا تفصح لى عن باطن نيتك وما أنت مختاره لولدك ؟ — فان كان قصدك أن يقضي ولدك حياته فى عالم وهمى ، يلبس فيها أكاليل الفلج ذوو الكفاءة وأولو المقدرة ، ويبحث فيه الناس عن الفضيلة العاكفة فى خدرها فيجزونها ، وعن البلادة والغرور والخسة فلا يجدونها وينقبون فلا يرون فيه محلا لغير الخير والجمال ، ولا موضعا لسوى الحق والكمال — أو كنت تختار لولدك أن يتمسك باحترام نفسه ويؤثره على اطراء الناس له . يصغى الى ما يمليه عليه ضميره ويعرض عما يتمدح به الكافة من السوقة والغوغاء ، ويغبط بقضاء واجبه ومحاسبة ذمته أكثر من اغتباطه برضي الناس عنه ، فاعلم أذلا محل له فى مدرستى وأولى لك أن تأخذ بيده الى المدارس العتيقة فيرتل هناك ما يشاء من قصائد الشعراء الاقدمين والمحدثين ، ويتلهى بما يشاء من العلوم والمعارف ويسلم بما يفرغه فى أذنيه معلموه وأساتذته ، واما أن تختار لولدك أن يكون رجلا من أولئك الرجال الذين يحييهم الناس فى الطرقات ، الذين

يسافرون فى المركبات المحجوزة ، وينزلون فى أفخر النزلات، ويصيبون من العقدة والجاه ما يسول لهم استحقار العظمة المغمورة ، والزراية على الفضيلة المجهولة ، فهاته الى فانا الزعيم له بذلك — فاما انه يذكر بين سير فلوطرخس فذلك ما لا أضمنه لك ، ولكنى أضمن لك أن يدون اسمه يوما ما بين أعظم الاسماء فى سجل الحكومة

ثم قال أنه سيرتب مدرسته درجات حسب درجات المدارس المعهودة لان أكثر الناس لا يتطلعون من التعليم المدرسى الى الانتظام فى سلك الجامعات ، أو يطمعون فى درجة الاستاذية . وطلاب النجاح منهم من يقنع بمادون الوزارة فى السياسة ، ودون الملايين فى الغنى والثروة . فلا حاجة لهؤلاء بما هو أعلى من المبادئ الاولية فى علم النجاح . فلهذا أعددت فى المدرسة قسما عاما لمن لا يبتغون اكثر من النجاح فى الحرف الصغيرة والمكاسب الوضيعة ونصيحتى الى هؤلاء الصدق والامانة — قال وقد يظهر أن فى هذه النصيحة شيئا من خبث ما كيافلى ولكن الواقع والمشاهد أن الصدق نافع لطلاب القسم الاول من علم النجاح — لان الناس كلهم على بصيرة بتمييز الجيد والردىء من صنعتهم — اذا أتقن الاسكاف صنع حذائه وباع البدال السكر نقيا ولم يبعه على الناس رملا ، فكلاهما على ثقة من نفاق بضاعته والبركة فى رزقه : وان أجهل الناس يشعر بضيق الرداء أو سعته ولا يتعذر عليه أن يلحظ عيب السرير اذا كان معيبا ، فاعلم أنه لا ينفع هؤلاء الصناع الا تجويد الصنعة ، والصدق فى المعاملة .

فاما الطامحون الى عظيم المراتب ، المغامرون فى جليل المطالب ، الراغبون فيما هو أسمى وأسمق من معقول الناس فنصيحته اليهم أن

يتجنبوا الحياء ما استطاعوا . فقد يكون الرجل على قدم راسخة فى العلم وعلى قسط وافر من التفوق فى الفكر ، مليئا بانجاز العظائم ، مضطلعا بكبريات العزائم فاذا كان مع هذا حييا وقورا فأنذره بسوء المقبي وأيئسه من الاقرار بفضله والاعتراف بحسناته ، الى أن قال: ولا يغرنك قول من قال « لا تتكلم عن نفسك » فهذا هذر وهذيان . ولكن كلامك كله عن نفسك أولا لان الكلام ، عنها يطربك وثانيا لانك تصرف المجلس عن التحدث بغيرك - وقد يكون من أندادك — مادام المجلس يصغى اليك . وثالثا لان اثارة من كلامك ستبقى فى ذاكرة أشد مبغضيك . وليكن لك من الحزم ما يفهمك بالبداهة أن لا تذكر نفسك الا بخير . ولا تقف فى هذا عند حد بل عظم نفسك وترنم بالثناء عليها وسرد مناقبها وما آثرها واستعمل لذلك جهدك فى الفصاحة والخلابة ، وأضف الى نفسك أفخم الصفات وارفع اعمالك الى السماء السابعة وقل انها أحسن مستخرجات العصر وأعجب محدثاته . وأكد لسامعيك أن العالم بأسره يعجب بها ولا تنس اذا لزم الامر أن تنقل بعض اقوال المعجبين بك والمقرظين لك ، فاذا لم يكن قد تناهى اليك منها ما تنقله فاختلقها للتو والساعة . وسترى أى نجاح تصيب اذا انتصحت بنصيحتى نعم أن من العقلاء من يسخر منك أو يستوقحك ولكن أين هم العقلاء انهم الا فئة صغيرة وليست هذه الفئة هى التى تقتسم بين الناس جوائز الحياة . . . . . فاذا دعيت يوما الى وليمة قالت ربة الدار هذا رجل صاحب دعاوى عريضة لا يقنع بالقليل من الحفاوة ولا يرضى الا بأن أجلسه الى يمينى بالمحل الاول على المائدة والا فقد يسوءه أن يتقدم عليه سواه ويبرح الدار محنقا وقد يكون بين المدعوين رجل من أولى

الكفاءة الصحيحة فلا تريد ربة الدار على أن تقول له «لا اخالك تمانع فى ايثاره بذلك المكان انك ولاشك ارفع من هذه السفاسف ثم ينتهى الامر بأن تحفظ لنفسك المكان الاول فى كل وليمة ، ويألف الناس تقديمك والترحيب بك حتى لا يخالج صدورهم تردد فى ذلك » قال ولا تنبذ الحياء كل النبذ ولكن ادخره لتعود اليه متى وجدت من المادحين ما يغنيك عن مدح نفسك

وانتقل نوردو من ذلك الى معاملة الانداد والقرناء فقال : « اياك والاصاخة الى نصح الناصحين لك بتجميل رأى أمثالك فيك ، فانها خرافة فاشية بين الاغمار وما أمثالك الا مزاحموك — كلهم من اربة النجاح الذى هو من اربك ، فكلما اتسع حيزك ضاق حيزهم ، وانتقص قدرك من قدرهم فلا تنظر منهم انصافا ولا ترج من لدنهم خلاصا وانهم ليجسمون اغلاطك ولا يألون سعيا فى طمس مزاياك فاقصر همك على فريقين الفريق الاعلى الذين بيدهم رفعتك ونباهتك والفريق الادنى الذين هم تحتك من الدهماء والعامة واحرص على أن تبدوا للاولين صغيرا جدا وللآخرين كبيرا جدا كان الفريقين ينظرن اليك من طرفى مجهز وليس هذا بالعلم السهل ولكنك حرى أن تتمكن منه بالمزاولة والتجربة »

قال : «فاذا بلغت المدى وخلفت أندادك وراءك وتبوأت المكانة التى يرجى خيرها ويخشى شرها هنالك تشعر بالسرور الذى يداخلك من سرعة انتقال المقامة الشائمة الى محمدة رائعة ، والجفوة الى المحبة ، والاغضاء الى الاعجاب والثناء» ثم قال وانك أشد ما تكون فقرا أحوج ما تكون الى تجميل بزتك والظهور بمظهر أصحاب الضياع

والكور . وربما أعوزك ذلك الى المال وقد لا يتيسر لديك الكفاية منه . فماذا أنت صانع ؟ ؟ اذن فاقترض يابنى . اقترض ولايكرثك أمر الوفاء انك ان عشت عيشة الاوفياء فسكنت السطوح وأكلت الخبز القفار لا تأمن بعد قليل أن تنبحك الكلاب وتتجه اليك شبه الشحنة ويوصد الكبراء أبوابهم دونك ولا يعبأ بك حتى البدال الذى تشترى منه ميرتك الساعة التى تسددفيها دينه عليك . أما اذا أفرطت فى الاقتراض وافرطت فى الاستعارة فانك تعيش عيش المترفين ويكلأك الدائنون كما يكلأ والد ولده . رغبة فى بقائك واشفاقا على اموالهم المرهونة بحياتك ثم يتمنون لك الغنى ويسعون لك فى اليسار

وكان ختام المقال هذه النصيحة الجامعة : لا تحتفل غاية الاحتفال بعمل ولا تبهظ نفسك فى تجويده معتمدا على أن عملك يعلن عن نفسه فان صوت الاعمال خافت يغطى عليه صلق الاوساط الحاسدين . ولغة الاعمال غريبة لا يسمعها الزعانف ولا يفقهون معانيها، وقل أن يعرفك أو يقدر عملك الا النخبة المعدودون ، والخاصة المنصفون . على انهم مع عرفانهم قدرك وتقديرهم عملك لا يخفون الى مسعدتك من قبل أنفسهم ما لم تعترض أعينهم غضبا . فمالك يابنى تبدد عمرك فى الامانة والاجتهاد انما عليك أن تدرس أطوار الجمهور وتتعرف مواطن غفلته فتستخدمها فيما يفيدك واعلم أن الناس لا طاقة لهم بالتميز والحكم فاحكم لهم أنت ، وليس لهم فكر ممحص أو نظر بعيد فاياك وما يكدر أذهانهم ويعضل على أدمغتهم ، وأن الناس بلداء الاحساس ، ثقال السمع فليكن ظهورك بينهم بجلبة يسمعها الاصم ويبصرها الاعمى ، وان الناس لا يفهمون التورية والمزاح ، ولا يتأولون الحروف والالفاظ فكن لهم

واضحا فى مخاطبتك ، سـهلا فى عبارتك ، وعـدد لهم بلهجة ظاهرة يفهمونها ولا يرتابون فيها ، كل ما هو شين فى أعدائك وكل ماهو حسن فيك ، وأن الناس ضعاف الذاكرة فاهتبل هذه الغرة فيهم ولا تحجم عن طريق تؤديك الى غرضك فانك متى أدركته لم يذكر أحد كيف وصلت اليه فبهذه المبادئ الاساسية تصبح غنيا وعظيما وتستتب لك الامور فى هذه الدنيا » اه بتلخيص وتصرف

الصحائف

سطور ومقالات وخطب كتبتها النابغة «مى» ونشر الجانب الاكبر منها فى الصحف والمجلات بمصر وسوريه ثم جمعت فى مجلد واحد فهو هذا الكتاب الموسوم باسم الصحائف

والانسة «مى» كاتبة مطبوعة . ولك أن تسألنى كيف تعرف ذلك؟؟ فأقول لك إن علامة الكاتب المطبوع أن يكتب ما يوافق طبعه غير متوخ فيه المحاكاة لغيره . وهذا هو شأن الآنسة «مى» فى جميع ما تكتب . فان كنت من المولعين بالتعريفات وأردت أن تضع لها تعريفاً جامعاً مانعاً كما يقول المناطقة لتعرف التطابق بين الكاتبة وما تكتب من هذا التعريف قلت أن «مى» هى آنسة شرقية سورية المنبت تعيش فى مصر ذكية الفؤاد مهذبة الفكر مطلعة على آداب الغرب لطيفة الشعور عليمة «بسنة الحياة» ثم احفظ هـذا التعريف وافتح أى كتاب من كتبها على أى صفحة من صفحاته عند أى سطر من سطوره فانك لا تجد الا ما يطابق تعريفك ويوافق القول المنتظر ممن يكون على هذه الصفة . . . . ولعمرى انها لطريقة ظريفة فى تمييز الكاتبين ! ! ولكن

للآنسة « مى » الفضل فى ايحائها الى الذهن لوضوح مواهبها وظهور خصائصها ابين كتاب لن يستطيع لا كبرهم تعريفا ولو جهدت غاية الجهد

ومن الكاتبات من يلبسن عليك الامر اذا قرأت لهن فيحيل اليك من روح كتابتهن أنها كتابة رجال لا كتابة نساء ، أو انها قد تنسب الى جنس من الجنسين بلا فارق فى النسبتين . فأما الآنسة « مى » فبنت جنسها البارة بمواهبه وهى مثل صالح من أحسن امثلته وعنوان عال من أصدق عناوينه . فالرجال والنساء يفترقون فى أشياء ويلتقون فى أشياء ولكنك اذا أردت أن تفرق الجنسين وتخص كل منها بأخص صفاته فالراجح أن تكون صفة الرجال العامة الجهاد وعدده وصفة النساء العامة العطف وما يناسبه . فهذا العطف هو أخص ما خصت به كاتبتنا النابغة وأبين ما يبين لك من جملة آرائها فى الناس والكتب والافكار ، وهو النعمة التى تسبغها على كل ما تتناوله من الموضوعات وتطرقه من المباحث فتلفها فى شملة حية وثيرة من الرفق والسماحة . فلا عصبية ولا خصومة ولا الحاح فى رأى من الآراء بل هنالك غصن الزيتون مرفوع للجميع ورايةالسلام مرفرفة فى كل مكان ، والمخالف له من التحية والحظوة مثل ما للموافق أو هى ابتسامة واحدة يظفر بها المخطئ كما يظفر بها المصيب لان للمخطئ حقا فى أن يخطئ كما ان للمصيب الحق فى أن يصيب . . . ولهذا ترى الآنسة تفسح للقديم مكانه وتعزل للجمود حصته ولو انها تعطيك بما تكتب قدوة ناطقة باختيار الجديد واطراح الجمود . وهى تشفق على القديم من معول الهدم فتقول لنا أن الهدم فى عالم المعنى جهد لا تلجئ اليه الضرورة لانك « فى عالم المحسوس تهدم أو لا تهدم تشيد . أما فى عالم المعنى فالهدم يتم اذا شئت وأنت تبنى » ونحن نقرأ لها هذا الرأى ونستشفه

من خلال أقوالها فلا نعجب من أشفاقها هذا على القديم لانه لون من الوان عطفها ولا ننكر عليها كراهة الغبار الذى تثيره المعاول و نفورها من الجلبة التى تصك بها الآذان

بهذه الروح الرؤم جعلت «مى» مباحثها كلها سمراً مؤنساً وصيرت الدنيا كلها غرفة استقبال لا يصادف فيها الحس مايصدمه ويزعجه ، أو صورتها متحفا جميلا منضوداً لاتخلو زاوية من زواياه من لياقة الفن وجودة الصنعة . فان كان للمنظر من مناظر الدنياحسنه ورواؤه ففيهما الكفاية وعليهما مزيدمن مهارة التنسيق وبراعة الترتيب . وان لم يكن له هذا النصيب من الحسن والرواء فلا يحرم فى المتحف المكان الممهد ولا الاطار المحلى ولكنه ينالهماوعليهما مزيد من مهارة التنسيق وبراعة الترتيب أيضا : غطاء موشى ثمين !

وكن من شئت من أصحاب الآراء الشديدة أو الرفيقة ، الشاذة أو المطردة ، السابقة أو المتخلفة ، واقرأ كتابة الآنسة « مى » لاتجد فيها مايغضبك أو تظن انه مناقضة مصوبة اليك فى هوى نفسك أو منزع فكرك . وليكن لك رأيك فى أسلوب الكتابة أونمط التفكير أو صيغة التعبير فما من كاتب إلا وللناس فى أسلوبه وتفكيره وصيغ تعبيره اراء لاتتفق . أما الانسان فى « مى » — ذلك الكائن الشاعر الكامن وراء الكاتب منها والمفكر والمعبر فلا يسع الآراء المتفرقة الا ان تتفق فيه وتصافحه مصافحة السلام والكرامة

* * *

قرأت فيما قرأت من هذه الصحائف مقالة « الدكتور شميل شاعر » فتبسمت وأنا أقرأها لانى تذكرت نكتة للمرحوم صبرى باشاروتها

الآنسة لنا فى صدد الكلام على شعر الدكتور شميل ومعرض النكتة أن الطبيب والشاعر اجتمعا مرة فى مجلسها الزاهر الذى تستقبل فيه الزائرين كل ثلاثاء وتجرى فيه المساجلة الممتنعة فى الادب والعلم والفكاهة. فجعل الطبيب ينشد الشاعر من شعره الالحادى الذى يعرفه قراء المعاطس وهذا ساكت كالمصغى المتجلد لا يبدى رأيا حتى فرغ الطبيب من انشاده وسأله ماهولك ؟ فالتفت صبرى باشا كأنه قد أدى كل ما عليه من الصبر وقال له :

هذا كفرام شعر ؟ فان أردته كفراً فهو كفر بلا مراء . . . أما انه شعر فلا ياصاحبي لا » ولا تسل عن رطانة الدكتور وسخطه بعد هذا الجواب ! !

ولكنى قرأت فيما روته الآنسة من نظم الشميل شعراً هو شعر ليس بالكفر لا كذلك الكفر الذى ليس بالشعر . فعلمت انه قد ظلم شاعريته كما ظلم سائر الشعراء لانه يقول من بعض نظمه

حبذا زهر الربى من كل صاف ومخضب
مثل فجر مستطير أو كأفق قد تلهب
يتهادى فى نسيم كتهادى الطفل يلعب
والندى من فوقه حير ان كالدمع تصبب
قلق مما يعانى قلق القلب المعذب

ومن استطاع أن يضرب على هذا الوتر ولو مرة واحدة فى حياته قد كان قادرا ولا شك أن يعيد النغمة مرارا وأن يكون أشعر مما كان لو راض قريحته على معانى الشعر وعباراته لولا شدة تعصبه للعلم

ولقد كان الدكتور يقول بالحرف « فضونا من غلبتكم ـ أدبائيه،

ياأولاد الكلب ! » وتقول الآنسة مى (كان للآباء أل يسألوه : قلمك يقول اننا أبناء القرد وصوتك يقول أننا أبناء الكلب فأى الوجهين جدنا ؟) ومابرحت حتى ثأرت منه للشعراء واستطاعت أن تقول انه هو مثلهم شاعر . . . !

الا أنها بالغت فى الاخذ بالثأر فجعلته فيلسوفا و (الدكتور شميل لايريد ان يلقب بهذا اللقب العظيم وينفى الفلسفة عن نفسه بحدة تكاد تكون غضبا . فهو فيلسوف على رغم منه) اما أنا فلاأحب ان امضى فى الانتقام الى هذا الحدولا اريد انيظهرلنا موليير آخرفيجعل الدكتور بطلا جديداً فى رواية يكون عنوانها (فيلسوف علىرغم منه) كراوية (الطبيب علىرغم منه) ! واتشفع لطبيبنا عندالآنسة فابرئه من الفلسفة كما برأ نفسه . وكيف يكون فيلسوفا من يرى ان مذهب دارون قد فض مغالق الوجود وابطل الحدس فى الغازه ومسائله ونقض ماتقدم وما تأخر من مذاهب الفلاسفة وقطع بحكمه الفاصل قول كل خطيب ؟ الا اننى لست ارحم من الآنسة (مى) كما اريد ان ازعم . . . لاننى سأقول ان الدكتور شميل متدين ! ! نعم متدين شديد التدين بدليل حماسته فى الالحاد واشتغاله به طول حياته ، ولا يكون الالحاد شغلا شاغلاوحماسة متقدة الا اذا مازجته روح الدين اوكانتفيه على الاقل اثارة منه .

***

وقرأت مقالة (ميكلانجلو) مجدد المدرسة اللاتينية التى كانت (غايتها اظهارجمال الجد الانسانى فأتت باعظم التماثيل وكان اتقانها المتناهى أس عظمتها الفنية) فبعدان سرى المسخ الى الفنون فأضت سقيمة

موهونة فى أيام الاضمحلال وصار المثل الاعلى للجمال مشوبا باصفرار الداء وهزال الضعف عادت اليه العافية فى أيام النهضة وجددت مدرسة فلورسة من شبابه فكانت تماثل ميكلانجلو (تمثل القدرة والعزم على أبدع منوال وترسم الشجاعة وقوة الارادة وعلو الهمة ولكأنك أمام تماثيل هذا الجبار تستحضر وجوه الابطال من البشر المتقدمين يوم كانوا يهبطون من أعلى الجبال فيقدمون على أعدائهم بلطمة ويخنقون الاسود دعابة فى أحضانهم فاذا كانت أثينا الوطن الاول للجمال وكانت شجرة الفن قد خيمت أول مرة تحت سمائها الصافية — كما قال هيبوليت تاين فان أمتن دوحة من تلك الشجرة امتدت الى فلورنسا وأورقت فيها وكان ميكلانجلو أكبر وأبدع زهرة على افنانها)

ولا شك ان اللاتينيين هم أقدم أساتذة الجمال وأول من هدى الى محاسن الجسم الانسانى ومثل له النماذج البديعة فى جمال الرجولة والانوثة وهم رسل «الصورة والشكل» فى عالم الفنون بل فى عالم السياسة والفلسفة وفى كل وجه من وجوه الحياة . حتى كاد العالم أجمع يكون فى نظرهم تمثيلا وفرجة وكاد النظر الى صور الجمال يكون همهم الاول من الحياة السياسية والاجتماعية بلا اكتراث لفوائدها وضرورتها . فكانوا يجربون النظام بعد النظام ويرفعون الزعيم بعد الزعيم ثم لا يصبرون عليهم الا ريث ان يستنفدوا منهم كل ما فيهم من المنظر والفرجة . فاذا فتر منظر النظام من تلك الانظمة الغوه أو بدلوه ، واذا فرغ الزعيم من تمثيل دوره وسكنت الحواس التى هاجها بحركاته نفوه أو قتلوه . فكان حكم الطرد «الاوستراسزم» هو التصفيقة التى يصرفون بها كل زعيم طالت وقفته على المسرح ولو كان من أقدر الساسة وأنفعهم لبلده ، وكان أذكى

هؤلاء الزعماء من يلهيهم باللعب أو يشغلهم بالحروب عن اطالة النظر اليه واستشعار الملامة من منامه

ولم تتجرد فلسفة اليونان من هذه الفتنة «بالصورة والشكل» كما قلنا آنفا فقد كان فيلسوفهم المطبوع «أفلاطون» يقول بالفكرة والقالب أى بأن هذا العالم المرئى من أعلاه الى أسفله انما هو الا الصور والقوالب التى تتخذها الافكار الالهية للظهور فى عالم المادة . . وعلى هذا النحو يجب أن نفهم سر افتتان اللاتينيين بالاشكال المحسوسة وجمال الاجساد . فانهم ما هاموا بها وأحبوها مطاوعة للمادية الغليظة وانغماساً فى لذات الحس المحدود بل لقد كانوا يحبونها ويتذوقونها ويعجبون بها كأنها تعبيرات محسوسة لما وراءها من معانى الحياة وحركات الحرية وأسرار الجمال

فليت لنا من رجال الفن فى مصر من ينهضون كنهضة «ميكلانجلو» فيعلمونا معانى الجسد الانسانى ويريحونا من هذا الجمال المسترخى الذى يقدر بالشحم واللحم ويوزن بالقنطار . .

٥

الاستاذ النابغة

المرحوم قاسم بك أمين

يشرح المؤرخ اطوار أمة فى زمن من عمرها بتعريف أخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها وحالتيها الاقتصادية والسياسية داخلا وخارجا وماهى عليه من درجة الافكار والعلوم والاداب والفنون ويبين فى خلال ذلك ماطرأ عليها من الحوادث المهمة حتى يخيل للقارىء مع ذلك البيان الشرح والتعريف المفيد انه كان عائشا فى وسط أهلها وقد لايعتنى الا قليلا بسرد الحوادث كما يفعله مؤرخونا باجلائها امام أعين القراء كما تجلى الرجل صاحب (صندوق الدنيا) العجائب والغرائب أمام بصار الطفل وهى تكاد تزوغ من الدهشة والاستغراب

وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التى موضوعها الانسان الاجتماعى

وكما يفعل المؤرخ فى الماضى يفعل الكتاب المشتغلين بالاحوال العمومية في الحال فيدرسون زمانهم درساً تاماً ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم حتى يتبين لهم ماهم عليه بكيفية لاتقبل الشك ان هذه الامور انما هى العلل التى انتجت تلك الحالة وأن تغييرها لايكون بالصدفة وانما هو بتغيير يحدث فى تلك العوامل المؤثرة اذا السبب والمسبب دائما متلازمان عقلا وعادة متى وجد أحدهما وجد الآخر حتما

وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى فى العالم كله فليس فى الكون شيء وجد بلا موجد وسبب واضح أوخفى معروف الان أو بكشفه المستقبل . .

هذا القانون الالهى وان كان لايظهر بوضوح تام فى علوم الهيئة الاجتماعية كما هو ظاهر فى العلوم الطبيعية . أولا لان معارفنا المختصة بالمجتمع الانسانى هى فى الحقيقة فى أول نشأتها وعلى حداثة عهدها . وثانيا لان الحادثة الاجتماعية لاتتكون من سبب واحد بل يشترك فى مقدماتها عدة أسباب متنوعة . وثالثا لانها تظهر دائما أنها تحت ارادتنا وان لنا سلطة فى ايجادها واعدامها وتعديلها . ولكن يكون من الخطأ الجسيم أن نعتقد ان الجسم الاجتماعى ليس خاضعا لذلك القانون العام كغيره

وآية « ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » هى أساس لذلك القانون وبها يظهر للقارى كيف توافقت شريعتنا مع العلم في هذه القضية كما تتفق معه دائما لوكان القائمون بشؤونها رجال أكفاء يخدمونها بجد ويفهمونها باصابة ادراك

على ان حالة الامة فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة بل انها نتيجة لازمة لاتتغير الا اذا تغير مابنفس تلك الامة

فان كانت امة نشيطة متربية متمدنة كان لها الحظ فى الدنيا وان كانت كسولة جاهلة ذات أخلاق رديئة كان لها الشقاء فيها

والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول فهى لاتتغير ابداً الا بحال آخر. بمعنى ان اراده شخص اومائة شخص او

اصدار قانون اومائة قانون كل ذلك لا يؤثر فيها بشيء محسوس

وعليه فاذا اراد من يهمهم اصلاح امتنا من رجال الحكومة وابنائها الذين يفتكرون فى الطرق اللازمة لاخراجها من حالها و نقلها الى حال آخر ان يفعلوا شيئاً نافعاً فيعليهم ان يكتفوا لها الستار عن عيوبها جميعها مهما كانت مرة المذاق اومخجلة وان يربوها على التجمل بالعوائد الحسنة ان لم يكن بالتأثير على معاصريهم فعلى ذراريهم من بعدهم

ولذلك شرعت فى هذا العمل باحثاً عن حالتنا الحاضرة لا من جهة السياسة فانى لست مشتغلا بها الا من حيث كونى مصريا احب الوقوف على الحوادث التى تجرى فى وطنى . وللسياسة الان رجال قائمون والحمد لله بخدمتها واستخدامها اكثر مما يحتاج اليه الحال . بل من الجهات الاخرى كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين

والغرض الوحيد الذى اسعى وراءه انما هو الوصول الى الحقيقة لانها وحدها هى التى تحتوى على البذور الجيدة التى تنمو وتثمر

﴿الحالة الاقتصادية فى مصر﴾

اعطنى مالية حسنة اعطيك سياسة حسنة

تقول العامة «ان مصر أم الدنيا» والاصح اذا قورنت بينها وبين مدن الممالك الاخرى مثل لندره وباريس وهامبرج وبروكسيل وامثالها ان تسمى «خادمة الدنيا» لانها لو وضعت فى جانب هاته المدن لظهرت فى حالة فقر محزنة كما لو وضعت سائلة مكدية ذات اطمار بالية قذرة فى جانب عروس متجلية بافخر الملابس واثمن الحلى وابهاها

وفى الحقيقة ان مصر بلدة فقيرة جداً نصف اهلها وهم الفلاحون

يعيشون بالشئ التافه الذى يقى الحى من الموت جوعاً . والنصف الاخر ينقسم الى قسمين . الاول يشغل التجار والصناع وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه انه مالى ملى . والآخر يحتوى على الموظفين وارباب المعاشات وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعاً مافى معيشتهم ولكن اغلبهم ان حيل بينه وبين مرتب المعاشات شهراً واحداً وقعوا فى العسرة والضنك الشديد

اما ارباب الاطيان من الذوات والعمد والمشائخ والاعيان فى البلاد فحالهم كحال «رابيل» المؤلف الفرنساوى المشهور اذا قال فى وصيته «انى لااملك شيئاً وعلى ديون كثيرة واوصى ببقية ماامللك للفقراء»

والبلد التى يكون اهلها فقراء مثلنا لايمكنها مادام فقرها ان تؤمل خيراً فى المستقبل لان حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها اذ بالمال يتم كل شئ وبغير المال لايتم شئ مطلقاً

والمملكة لا تكون غنية الااذا كان اهلها اغنياء ولذلك قال احد السواس المشهورين : اعطنى مالية حسنة اعطك سياسة حسنة

وعلى هذه القاعده وجهت كل امم اوروبا التفاتها الى المسائل الاقتصادية واعتنائها بها كل الاعتناء فانشأت نظارة للتجارة وللصناعة وللمستعمرات واكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية وتهافت على وسائل الاستعمار . وصارت كل أمة تزاحم الاخرى فى هذا السبيل . والتنافس بينها فيه شديد بالغ حد الكفاح والجهاد : فلا تتأخر واحدة منهن عن بذل المال والروح فى توسيع دائرة تجارتها وفتح الابواب لتصريف مصنوعاتها حتى ان رجال السياسة صاروا يعتبرون انه لابد من الحرب يوما بين انكلترا والمانيا لان المنافسة بين الامتين

فى جميع انحاء الدنيا او صلتهما الى درجة اعتقاد ان احداهما لا يمكن ان تستمر فى طريقها الا اذا سحقت الاخرى

ونحن معاشر المصريين لا شغل لنا تلقاء كل ذلك الا الاشراف على ميدان هـذا التنافس للتفرج على المتنافسين والاعجاب بهذه الامة والاستهزاء بتلك . كاننا عالم من كوكب آخر حضرنا الى هـذه الدنيا للتفرج على اهليها اياما معدودة ثم العودة الى اوطاننا بعد ذلك بسلام

والحقيقة اننا نحن موضوع تنازعهن وسبب مشاكلهن. نحن اللقمة الدسمة التى يريد كل منها ان يبتلعها فى جوفه

وبمثل تلك المساعى المتقدمة توصلت الامم الى اقتناء الثروة وكثر فيها الاغنياء والماليون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات

ولكن الشىء المهم الذى ارجو ملاحظته هو ان كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هى نتيجة عمل صاحبها . ترى الرجل مثلا فى امريكا يبتدىء فى تجارة أو صناعة حقيرة فيصل بعد بضع سنين الى مصاف الماليين الذين يحرزون الملايين . فلماذا ؟ — لانه يشتغل ليكسب فالواحد منهم يشتغل دائما . يشتغل فى النهار ويفكر فى شغله بالليل . وهو قد تربى على أن يشتغل وتربى على ان يعتمد على نفسه «وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى» فالتربية والعادة قد أوجدتا فيه الاقدام على الشغل والعمل. فهو يتفكر فى كل شىء ويلاحظ كل شىء ويجرب كل شىء فان وصل فازوشجعه النجاح على الاستمرار . وان خاب ووجد فى طريقه عقبة ولم يستطع ازالتها بهمته استأنف السعى فى عمل آخر أو فى نفس العمل من طريق آخر

فهو على كل حال حي ثابت عامل . جسمه يتحرك ومخه يؤدي وظيفته كأنه آلة متى غادر سرير نومه في الصباح أدار دولابها فتدور وتستمر دائرة الى وقت لا مناص فيه عن الراحة بالنوم

وعلى العكس من ذلك الواحد منا معاشر المصريين — أو الشرقيين كافة — فهو كالبرزون الذي يعلق في الساقية يمشي الهوينا خطوة فخطوة وعلى عينيه غماء وقد يقف بعد كل خطوة حتى يسمع صوت الفرقلة فيجاهد بنفسه خطوة ثم يقف . وهكذا حتى المساء حيث يقدم له علفه فيأكله طيباً اورديئا ثم يهوي بجسمه كالشبح المرضوض على الارض فينام تعبا كسولا بل مكسراً مهشما حتى الصباح

(الاستقلال في المعيشة قبل كل الاستقلال)

ان أول شيء يجب على كل فرد من أفراد أي أمة ان يكد في طريقة تضمن له معيشته اذ لم يكن بعمل يعود نفعه على الهيئة الاجتماعية فعلى الاقل لا يعود منه ضرر عليها . لان أمر معيشة الانسان هو في مقدمة كل احتياجاته

فعلى كل نفس تحترم ذاتها متى كانت قادرة على الكسب أن تكون مستقلة غير محتاجة للغير تكفل نفسها بعملها ولا يباح لها مطلقا ان تكون عالة على غيرها

ولكن من الاسف نحن نرى في مصرنا عدد غير قليل من اهليها جالسين بكيفية تأباها كل طبيعة شريفة فقد لا يخلو بيت من وجود شاب أو رجل بلغ الاشد أو كهل ذي اعصاب قوية وقامة قويمة مقيم فيه آكلا شاربا بحجة انه قريب لصاحب المنزل او صاحبته

وربما كان هذا الرجل مستخدما فرفت فلا يلبث أن يحتل دار أحد

اقاربه احتلالا ابديا يأوى اليها ويأكل منها ويمضى اكثر أوقاته فى النوم واذا لم يكن نائما تراه جالسا على كرسى امام الباب او على حانوت او قهوة مجاورة له وفى الغالب تكون فى يده سبحة يحرك حباتها بانامله وقد يذهب الى الجامع فى أوقات الصلاة ان كان من الاصل صالحا او طالحا أوتاب الى الله مؤقتا بعد رفته حيث يستمر كذلك الى ان يعود الى الخدمة فيعود الى فسوقه

ويعيش على هذه الحال الايام والشهور والسنين بلا سعى ولا عمل ولا حركة .واذا تحرك وسعى يوما فقصارى جهده ان يذهب الى احد دواوين الحكومة ليستعطف رؤساء المصالح ان يذكروا اسمه عند خدمة نقوته ويعيش منها

ومركزه فى المنزل الذى يأويه مركز حرج فلاهو سيد ولا هو خادم وهو فى الحقيقة ممقوت مَن الاثنين وناقم عليهما حيث يخيل له ان قريبه قد مل مقامه عنده وصار يلحظه شذراً او يغض عنه النظر او لا يعطيه ما يكفيه من الدخان او لا يفتكره بخمسة قروش فى اليوم .وان الخادم يعامله بالخشونة او لا يسمع كلامه كثيرا أو يسخر منه ويزدرى به من طرف خفى .وهكذا

واذا خلا بصاحبه له يقول له ماذا أصنع يا أخى فى هذا الوقت الصعب والحكومة اقفلت ابوابها فى وجوه ابنائها

ماذا تصنع؟ اذا انت اصغيت لنداء ضميرك فاصنع كل شىء.

كن تاجراً . كن مزارعا .كن صانعا . كن خادما . كن كيفما تستطيع ان تكون. فانه احسن لك وللناس مما انت فيه

هب ان الحكومة قررت ان لا تأخذ من الآن موظفا مصريا

فهل يموت المصريون جوعا ؟

الا تنظر كيف يصنع الاجنبي . ولا اتكلم عن الانكليز فى بلادنا فان لهؤلاء نفوذاً ظاهراً . ولكن اتكلم عن الرومى والارمنى والسورى والهندى والعجمى والطليانى وأمثالهم

انت تعلم ان الفرد من هؤلاء يأتى خالى الوفاض صفر اليدين فيبتدىء شغله بحرفة صغيره مهما كانت دنيئة هى اشرف من البطالة التى هى حرفة الكثير من المصريين . وهو اذا ربح اليوم قليلا قليلا فقد ينمو وتزداد ثروته بعد ذلك حتى يصل الى اعلا درجات الثروة . وانت ايها المصرى البطال اين البلاد وادرى بما فيها ولك فيها القريب والحبيب فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون الى بلادنا ؟

انا لا اجهل ان الانسان على الانسان وخصوصاً على القريب حقوقاً مقدسة وان مساعدة ذوى القربا واجب دينى واجتماعى ولكن ليس من الواجب بل ولا من البر مساعدة الكسلان والتشجيع على البطالة انما البر عند الاحتياج الحقيقى وهو يكون اذا وجد المانع عن الاحتراف والتكسب

اما مساعدة الشخص القادر على العمل فيجوز ان تكون وقتية لعذر طارىء ويجوز ان تكون لتحسين حالة شخص يكسب قليلا . ولكن من العبث ان يقوم شخص بجميع حاجات شخص آخر . ومن العار على هذا ان يقبل مثل هذه المعيشة والا يرضى بحال كل حرفة مهما كانت منحطة فى اعين الناس فلا يمكن ان تكون احط منها

ولهذا اتمنى قبل كل شىء ان ارى يوماً جميع اهل بلادى مستقلين فى معيشتهم يعيش كل فرد منهم بنفسه

(اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً)

اجزل وصية نطق بها الانسان للانسان « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً . واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»

ونحن نقتصر على الوصية الذهبية الاولى لان المصريين اصبحوا فى خمود اشبه بالموت . فهم الآن اعوز الى التذكير بالحياة منهم بالموت

من البديهى أن الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف لانه لو كان هذا داعى الفطرة البشرية لما كان التنافس فى المزيد. فعلى الانسان ان يسعى والحالة هذه لتحسين حالتيه المادية والادبية. فان كان يكسب فى اليوم قرشين فعليه ان يجتهد فى توصيلها الى خمسة ثم الى عشرة وهكذا . اما المحافظة على حالة معيشة دنيئة فذلك أمر لا يرضاه الا قليل الحيلة قليل العقل قليل الشعور بمزية الحياة الطيبة ان لم يكن عديمه بالمرة

ومن الاسف اننا قد وصلنا بالخمور الذى حافظنا عليه فى المعيشة الى حدود السكون فالموت

سر يوما بين الاسواق المصرية القديمة تجدها كما كانت قبل الطوفان حقيرة غير منظمة . لا تحرز الا نوعا أو نوعين من اصناف البضائع العتيقة المهجورة الاستعمال . وتشاهد صاحب الدكان يجلس من الصباح الى المساء فى شرب الدخان ومطاردة الذباب عائشا عيشة بهيمية لا يتخللها تصور ولا فكر الا اذا كان وقيعة بالغيبة والنميمة فى حق جاره

ان حضرت اليه امرأة اجلسها بجانبه وأخذ يجاذبها أطراف الحديث ساعة أو ساعتين . وان حضر له رجل أجلسه وأمر له بالقهوة. ومن بعد التحيات والسلام والاكرام يتبادلان الاخذ والعطاء فالمناقشة فالجدال

النزاع كخصمين لدودين فالايمان الكاذبة . ثم ينتهى الحال على ان يبيع قطعة أو قطعتين كل النهار فيربح قرشا أو قرشين

نترك هؤلاء وننظر الى طائفة اخرى من ارباب الاشغال العقلية فنرى هذا الطبيب أو ذاك المهندس مستخدما فى الحكومة برتب قليل نحو خمسة اوعشره جنيهات فى الشهر يعيش بها هو واولاده وزوجته وفى الغالب انه يعول واحد اواثنين من اقاربه . فانه خرج من ديوانه اوفرغ من اداء وظيفته الذى لايستغرق الاسويعات من نهار قضى بقية اوقاته فى الزيارات والقهاوى

فهلا خطر ببال ذلك التاجر اوهذا الطبيب اوالمهندس وامثالهم ان يخرجوا من هذه الحالة الدنيئة وان يزيدوا فى اعمالهم فيزيدوا فى جنى ثمراتها

وليس الغرض من تحسين الحال على هذه الطريقة ان يجمع الانسان المال حباً فى المال بل المراد ان يكون عند كل واحد طموح شريف الى العلاء. ولا يكون له ذلك الااذا سعى فى استزادة موارد كسبه ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه وان يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته الماديه فى ترقية عقله وتربية اولاده بالرياضة والتعليم والسياحة وان يأتى من الافعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله

ولاتحسبن ان المانع من اهتمام المصرى بترقية شأنه قناعة فى النفس وزهد فى الاموال ورغبة عن زخارف الدنيا .لانه لو كان الامر كذلك ما وجد مصرى حاسداً غيره على نعمته ولانافراً لذى غنى نظراً شذراً فالمصريون كلهم بين شاك ومشكو من هذا الحال فالمصرى اذاً طماع

كغيره وليس عنده من الزهد ماليس لغيره ولكنه مع ذلك لايحب الشغل والانشط لعمل فيه رزقه

فهو اذن يحب ان تمطره السماء ذهباً وان تنبته الارض فضه . يحب ان يكون اغنى الناس على شرط ان لايتعب جسمه ولايجهد فكره

والسبب فى سقوطه هذا امران : الاول سوء معاملة الحكومات السابقة له فانها بغدرها وظلمها اضاعت الامانة والثقة اللتين بدونهما لاتظهر الابتكارات الشخصية ففقد المصريون بذلك ملكة الاقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل . والثانى سوء تربيته فان عدم تشغيل الجسم وتحريك الاعضاء والجلوس ساعات بل واياماً على المقاعد والمراتب والمصاطب وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ وترك النظر فى الأشياء مع شدة التمسك بالاقوال والامثال المثبطه للهمم المميته للعزائم وتكرار سماع القصص والاحاديث التى وضعت فى الاصل لتسلية الفقير وازالة الاحزان عن الضعفاء قليلى الحول والحيلة ولكن غشيتنا جهالتنا والفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا فنشرناها وروجناها وحشيناها ووشيناها حتى تشربت بها ارواحنا وعقولنا. كل ذلك قد انتهى مع الزمن وبتأثير الوراثة الى اضعاف قوانا شيئا فشيئا . فاذا ناديناه يوما اعضاءنا وطلبنا منها حركة مهمة ولو كانت صغيرة خانتنا فلا تسمع نداءنا واذا سمعت واردنا الاستعانة بافكارنا وهنت فطاش سهمنا . وعلى كل حال فلا نلبث ان نشعر ونحس بعجز انفسنا فلا نجد لنا ملجأ الا الراحة التى اعتدنا عليها وبئس المصير

وهذا هو السر فى أن جميع الاعمال القليلة التى شرعنا فيها كتأسيس مدرسة او انشاء جمعية أو تشكيل ناد او عقد شركة لم تعش الا بقدر ماتعيش الوردة

(لماذا لا يوجد فى مصر اغنياء)

كان المصريون الى عهد غير بعيد ينظرون الاتجار بعين الاحتقار ويحسبون انها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار . والى الان لا يزال هذا الزعم منبسطاً على عقول بعض الامراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى الموشاة بالذهب ووضعوا النشانات على صدورهم وعلقوا فى مناطقهم السيوف تجر على جوانبهم الى الارض تخيلوا انهم من انسانية أخرى أعلا من انسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بايديهم ويباشرون بانفسهم حل وعقد البضائع ويقفون فى حوانيتهم باشين فى وجوه الوافدين منتظرين ان يطلبوا منهم شيئاً فيحضروه بين ايديهم فى الحال وهم يرون كل خدمة غير أميرية وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هى أشياء لا يليق الاشتغال بها

ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة الا فئة قليلة برهنت على ارادة واقدام واصالة رأى تستحق عليها ثناء الامة المصرية باسرها

ولو قارن أى انسان لم يعمه الجهل بين هؤلاء التجار الذين دخلوا فى ميدان الحياه والقوا بانفسهم فى معامل الكفاح والتنازع حتى خرجوا منها فائزين . وبين أولئك الذين منبع ثروتهم فى الاغلب العطايا والمنح التى كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج او لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى أى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر

وقد مرت على أوربا أزمان كان فيها أمراء البلاد متى قدم لهم رجل يسألونه : اين من انت؟ ثم أنى حين بلد ذلك كانوا يسألونه فيه . ماذا

تصنع ! والان لا يسألون الا عن قيمة الشخص فى حد ذاته من حيث مبادئه وأعماله

ونحن لا نزال على شيء كثير من تلك الاوهام والوساوس القديمة متعلقين باهداب خدمة الحكومة معتبرين انها أشرف مطمح

وانا أخاطب اليوم كل اب لا بن وأسأله ماذا يقصد من تعليم ابنه فاذا قال انه يريد أن يهيئه لخدمة الحكومة فقط لينال الشرف والرتب والوسامات مثلا فليس لى معه كلام وأما اذا كان ممن يحسبون ان خدمة الحكومة هي الطريق الذى يضمن مستقبل ولده فليعلم أنه مخطىء خطأ فاحشاً

ولست محتاجا قبل كل شيء ان أذكره بان زمن العطايا قد انقضى بل يكفى ان اثبت له ان قد صار من المستحيل اليوم ان يصل الانسان من طريق الحكومة — لا الى الثروة حيث الامر واضح جلى لا يحتاج الى دليل — بل الى درجه من اليسر الذى بدونه لا يمكن الانسان فى وقتنا الحاضر أن يقوم بجميع حاجاته

ولتوضيح ذلك نضرب للقارىء مثلا

خرج الشاب من مدرسة الطب وفى يده شهادته فاذا أراد أن يستخدم فى الحكومة عيفته حكيما لاحد المراكز ولكن بعد انتظار سنة على الاقل بمرتب متوسط سبعة جنيهات . ثم ان كان له حظ بعد ذلك — وقليلا هذا الحظ — ترقى كل ثلاثة سنوات مرة باضافة جنيه أو جنيهين على مرتبه

فان وصل مرتبه بعد عشرين سنة إلى عشرين جنيها مثلا كان محسودا من جميع أقرانه

ولا يختلف مستقبله عن مثل ذلك ان كان مهندسا او متشرعا أو كاتبا أو معاونا الخ

هذا اذا استمر فى وظيفته كل هذه المدة ولم يرفت بالاستغناء او مجلس التأديب . اما اذا رفت ولم يكن له معاش او كان له معاش قليل فحسبك أن تراه بعد ذلك تعيس الحظ فى حيرة لا يدرى معها ماذا يصنع بعد ان نشأ وشب مطبوعا على التوكل على الله ثم على الحكومه وبعد ان ان قضى احسن وقت فى عمره بدون مجاهدة نفس وتفكر وبلا شغل يذكر

ولو فرضنا الان أن الشاب اعتاد من أول نشأته على أن تتوكل على الله ثم على أشغاله وكده وصارت معه وظائف فكره وأعضائه تنمو بدوام الشغل والعمل وطار باجنحة آماله فى الدنيا وذاق حلاوة الكسب من عرق جبينه فلا تراه بعد تعب عشرين سنة كالتى قضاها ذلك الموظف الا ذا ثروة عظيمة مالم يكن خلقه الله مجردا عن كل استعداد طبيعى.

فعلى الاباء ان يعدوا ابنائهم الى غاية الوصول الى السعادة وان يفتحوا امامهم أبواب الامال لانها أبواب الثروة الحقيقية وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها . وأول شىء يجب أن يلتفتوا اليه اليوم هو التجارة

ان الاوربيين يجمعون الاموال الهائلة لا لان الله خلقهم أشد منا عضلا وأتم تركيبا . ولا لانهم اوتوا مفاتيح كنوز خفية لا يمكن أن نصل اليها نحن بل لانهم فهموا أن التجارة هى علم الثروة وهى علم حقيقى لا يقل فى الفضل عن أشرف العلوم. يدرس فى المدارس ويتمم بالاختبار والعمل . ويوجد الان فى المانيا عشرون الف تلميذ يتعلمون التجارة فى المدارس وتوجد فى النمسا اثنتان وستون مدرسة تجارية

يتعلم فيها مسك الدفاتر ونظام البنوك والحساب والرسم والقانون التجارى والجغرافية الاقتصادية وقيمة النقود باختلاف البلاد والتأمينات واللغات الاجنبية .

وفى انكلترا وفى أمريكا كل تربية لا تعتبر تامة الا بعد أن يمكث الشاب ستة أشهر أو سنة فى مدرسة تجارية

فالاوربيون اذن لم يصيروا أغنياء الا بسببين : الاول احتقار الاستخدام فى وظائف الحكومة وعدم الالتجاء اليها الا عند الحاجة والثانى احترام التجارة والاقبال عليها اكثر من اقبالهم على بقية العلوم الاخرى

ونحن على عكس ذلك . نحترم الوظائف الاميرية ونعهدها منتهى الفخار والشرف ونحتقر التجارة ولا نقبل عليها حتى عند الحاجة المطلقة فكان نصيبنا الفقر الاسود

(لماذا لا يوجد فى مصر اغنياء ايضاً)

لانه علاوة على الاسباب التى سردناها فى الشذرات الماضية يوجد سبب مخصوص يجب الالتفات اليه : الا وهو سوء تربية الاولاد

فقد وجد فى مصر عدد كبير من الرجال الذين احرزوا — اما بكدهم وجدهم واما من العطايا الولاة السابقين واما من مجموع ذلك او من طرق أخرى لا حاجة لذكرها الان هنا — ثروة تذكر فى مصر ولكن لسوء حظهم او حظ الامة المصرية الاسيفة انهم اعتنوا بجمع الاموال جهد الطاقة ولم يعتنوا مطلقا بتربية اولادهم

ولهذا شاهدنا ونشاهد كل يوم انه متى فارقا الحياة الدنيا

وقبل ان تجف دموع البا كيات عليه تستطير نيران الشقاق بين وارثيه بانين منازعتهم على الطمع والغباوة والعناد حتى يخسروا الجزء الاعظم من التركة بين مصاريف قضائية واجر للمحامين . ثم اذا كانت بقية بعد ذلك القوها فى حجر عاهرة او بعثروها على طاولة قمار بحيث لا يمضى على الوارث الجديد بضعة اشهر او بضع سنوات حتى يكون فى حالة يرثى لها

ولو كان المتوفى رحمه الله التفت الى تربية اولاده عشر ما التفت الى جمع المال فغرس فيهم الاخلاق الحسنة وافهمهم ماهى المعيشة واشركهم فى اعماله وافكاره وفتح عيونهم فى منظر الدنيا الحقيقى وايقظ عقولهم لحافظوا على ماترك وجعلوه فى المزيد

وان الثروات الطائلة الهائلة التى نشاهدها فى اوربا او نسمع عنها ليست ثمرة عمل شخص واحد بل يشترك دائما في تكوينها عنصران او ثلاثة . فتنتقل من شخص لابنه فحفيده وهكذا تنتقل نامية مضاعفة

ولذلك ترى بيوت تلك البلاد السعيدة على الحالة التى تركها عليها الاب او الجد او هى - على الغالب - احسن مما كانت عليه

ترى هنالك بيوتا محترمة تمضى عليها العشرات من السنين بل والقرون قائمة جميلة تذكر اسم مؤسسها وتشهد لحائزها الحالى بانه من نسل عريق فى النعمة والمجد والشرف : هذه الصفات التى تلازم دائما الانسان الذى يبرهن على قدرة فى العمل

اما عندنا فالامر على العكس من ذلك . نشاهد بيوت ذوا تنا وكبار سراتنا اياما معدودات ثم لا نلبث ان ننساها بالمرة بعد موتهم

يكون الرجل منا فى كوكبة جلال وابهة ومظهر نعمة فخيم . ثم اذا قضى نحبه شاهدت البيت الذى كان بالامس كعبة الوفاد والقصاد مظهر النعمة والجلال والجمال على عكس حالته الاولى . خاويا كئيبا خربا يسكنه العنكبوت والبوم والغيران والجرذان . او يسكنه غلام لا يليق الاجتماع به على انه لو كان تبديد الثروة على هذا المنوال راجعا بالفائدة على اهل البلاد بحيث يخرج المال من يد الوارث الى ايديهم لكان الضرر محتملا . ولكن كل يعلم انه توجد طائفة من سكان القطر تطوف دائما متخللة المنازل والجدران . فمتى ابصرت بركة مفتوحة حديثا حامت حولها وتزاحمت على الوارث كما تجتمع الطيور المفترسة على الجيفة

يتقدمون للوارث ببذل المال عن كرم حاتمى فيظن هـذا المسكين انهم أخوان صفاء ورجال مروءة فيكب عليهم بجميع اهوائه ويقترض منهم ويمضى على اوراق لا يفهمها . ثم يستمر كذلك على ان يسلسل منهم ديناراً بعدد رهم ومئات بعد عشرات حتى اذا آن الوقت المناسب ونضج لحمه واستوى انقضوا عليه بمخالبهم وطعنوه الطعنة القاضية على حياته

ذلك هو تاريخ كل ثروة فى مصر الا بعض مستثنيات نادرة ونحن نراهم كل يوم ونسمع ونتحدث به ونأسف عليه والاغنياء انفسهم يعلمون مصير ثروتهم من بعدهم . ولكن نراهم مع ذلك يتثبتون من النتيجة ولا يفتكرون فى المقدمات والوسائل التى تزيلها . وان افتكروا فيها فلا يعملون لازالتها . وان عملوا اهملوا اهم شيء وهو التربية لانها شيء صعب يحتاج الى عناية جسيمة ومراقبة مستمرة غير متقطعة .

كثيرا ما يتخذ اغنياؤنا بعض احتياطات لحفظ ثروتهم من بعدهم ولكنها فى الغالب لا توصل المقصود وقد يترتب عليها اعظم ضرر للهيئة الاجتماعية مثل ان يقفوا املاكهم — كما سنبين ذلك

﴿ الوقف ونتائجه ﴾

اذا نظرنا الى القصد الاول من الوقف من حيث هو وجدناه من اجمل مزايا الشريعة الاسلامية ، لان تجرد الشخص من املاكه وتخصيصها فى حياته او بعد موته لعمل خيرى هو امر لايصدر الا عن نفس طيبة وعواطف شريفة واميال بارة وفكر عال

ومقصد شرعنا الشريف من تشريع الوقف ان لاتكون حوائل بين نية الخير وعمله . فسوغ لكل انسان عنده نزعة الى الخير ان ينفذ قصده مهما كان وبأى طريقة شاء وفى اى وقت اراد

وهذه الحرية التى لم يصل الى درجتها كثير من الشرائع والقوانين الاجنبية وعلى الاخص القانون الفرنساوى قد لوحظ بلاريب عند سنها فى شريعتنا السمحاء أن تتشعب طرق الخير فى ملتنا وان تعود منها الفوائد الجمة على العالم الاسلامى ولامراء فى ان خير وجوه النفع للمسلمين انشاء المدارس لنشر التعليم ومعالجة المرضى ومساعدة الفقراء والبائسين وما يشابه ذلك من الاعمال النافعة العمومية التى تحفظ حياة الامم وتزيد فى قوتها

وبهذا المعنى فهم القصد من الوقف ازماناً طويلة فالمساجد والتكايا والكتانيب والمارستانات والمرتبات التى تعطى لطلبة العلم والفقراء وترى ،اثارها العديدة او معالمها القائمة منتشرة فى البلاد طولا وعرضاً تشهد لاجدادنا (اولئك الصالحين المحسنين المتبصرين) انهم كانوا رجالا يعملون بعقل وروية لاصلاح شؤون بلادهم ومنافع امتهم

اما الان فقد صار الوقف من الاعمال الاحتياطية التى يتخذها

الاغنياء ضد اولادهم . فالواقف صار اول قصد له من يحبس المال لا لفعل الخير بل ليحول بين ورثته وبين تبديده وهو ان كان يترك منفعته بعد انقضاء ذريته الى محل خيرى فذلك لانه يرى من المناسب او الواجب عليه ان يجعل عمله مطابقاً فى الشكل لاحكام الوقف . ففكرة الخير من عمله آتية على سبيل اللزوم والتبعية وما القصد الاول كما قدمنا الا ان يغل ايدى اولاده الذين يعلم انهم اغنياء جاهلون وفسقه مبذرون وكأنه لا يدرى ان الابناء اذا كانوا على هذه الصفة فكل احتياط معهم يذهب هباء منثوراً

ونحن مما نشاهد ويقع بين ايدينا كل يوم يمكننا ان نحكم : هل منع الوقف شيئا مما كان يتوقعه الواقف ؟ هل ادى الوقف الوظيفه الحقيرة التى اراد الآباء الاغنياء ان يستخدموه فيها ؟

الم تدلنا المشاهدات والتجارب كل يوم على ان الاولاد اذا لم يكن لهم رادع من انفسهم فهم بحكم الضرورة خاضعون لتأثير الشهوات المنتجة للفقر والعسرة الشديد فيستدينون حتى يستغرق الدين ايراد الوقف فى الحال والاستقبال ؟ الستا نشاهد الاملاك الموقوفة فى جميع القطر شرقاً وغرباً وكيف آلت الى الخراب بسبب تنازع المستحقين وسوء ادارة النظار ؟ الم يصل الى علم الجميع ان الاملاك الموقوفة تعامل الآن كما تعامل الاموال المباحة وهى مطمح مطامع الكل وكل يريد ان يختطف منها نصيباً ؟

ولئن اعتراض علينا بان اكثر الاعيان الموقوفة صارت فى كفالة الاوقاف فاصبحت فى حرز المثل ومشمولة بادارته . فالجواب ان ديوان الاوقاف لا يمتاز على غيره من نظار الوقف الا من جهة واحدة وهى انه

يفعل كبيراً مايفعله النظار صغيراً . وان هذه المصلحة فضلا عن سوء ادارتها الظاهرة سواء فيما يختص بتنمية ايراداتها وطرق صرف اموالها قد فقدت اميال الامة وثقتها. لانها فوق اهمالها الاعمال العمومية النافعة قد تحولت عن الغرض العالم الذى انشئت لاجله وهو اعطاء الحق لذويه فصارت اكبر خصم يصادفه المستحق اذا طلب حقه

ولو كان لمصر نصيب من الحظ لكانت هذه المصلحة اليوم كشجرة عالية منبسطة اغصانها الباسقة حيث يلتجئ اليها ويستظل بها فقراء الامة كلهم .او كقلب الامة الذى يخفق اذا هى حزنت او فرحت ويمد عروقها وشرايينها بالدم يهبها الحياة الطيبة

فيا لله كيف تصبح المصلحة الكبيرة النفع كآلة لهو فى ايدينا نلعب بها ونحن نتلفها كما يتلف الطفل كل العوبة تقع فى يده

ويا ليت شعرى كيف يتحول استعمال الشرائع فينتج نتائج مختلفة بقدر مايوجد من اختلاف وجوه تنفيذها ؟.وكيف ان الاخلاق تؤثر على القوانين والنظامات فتغيرها وتقلبها وتسدها وتحول بينها وبين الوظيفة التى وضعت لادائها ؟

ولقد كنت هممت ان انصح الناس ان لايقف احد شيئاً من ماله ولكن امل النفس تغلب على همامتها . فاذا لم يكن عندنا رجاء فى اصلاح الماضى فلا شئ يمنعنا — اذا اردنا — ان ننظر الى المستقبل من ان نرد الى الموقف اعتباره الشرعى وذلك يكون بامرين :

الاول ان يخصص الواقف منذ الآن جزءا قليلا او كثيراً ليصرف من اليوم الذى يبتدئ فيه تنفيذ الوقف على مصلحة عمومية يعود نفعها على البلاد كمدرسة او كتاب او مستشفى اجزخانه او مساعدة الفقراء

لذين يشتغلون او الذين لا يستطيعون الشغل بحال . وهذا الباب الاخير واسع يقبل صرف الملايين اذا وجدت . ولكن على شرط ان تكون مساعدة الفقراء بتمييز وفكر على النمط الذى نراه فى اوروبا . فيمكن مثلا تخصيص الصرف على تربيـة الاطفال اللقطاء او العائلات التى تفقد عائلها او بصفة مكافآت سنوية لمن يؤلف احسن كتاب فى تاريخ الاسلام او يترجم عدداً من الكتب الاجنبية التى يجب نشرها فى بلادنا. وهكذا

والثانى ان يعين الواقف الاشخاص الذين ينيط بهم ادارة الوقف من اهله او اصحابه او غيرهم ممن يرى فيهم الاستعداد والضانة لتنفيذ ارادته ولكن على شرط ان لا تؤول النظارة الى ديوان الاوقاف او غيره من مصالح الحكومة باى حجة كانت ولاى سبب كان لانى اعتقد ان كل وقف تمسه يد الحكومة ليس للامة منه نصيب

اما اذا أراد اغنياؤنا ان يتمتع اولادهم بعدهم بثروتهم فالوسيلة الوحيدة التى يجب استعمالها — مع التأكد من نجاحها — انما هى ان لا يقصروا فى تربيتهم

الفهرست

صحيفة
٢ الحياة للاستاذ مصطفى صادق الرافعي
١٩ فى الحب
٢٠ فى الحفلات والرقص والموسيقى
٢٣ ياليل
٢٧ على المائدة
٢٩ الحرب
٣٤ الهجرة للاستاذ محمد افندى كردعلى
٤٦ الهجرة الى مصر
٥٥ التفاضل بالبلاد
٥٩ النزلاء المسلمون
٨٦ المرحوم ولي الدين يكن
٦٩ آثار أقلامه ـ المرأة
٧٢ التعصب
٧٧ الكهول والشباب
٨٢ ليلة القدر
٨٦ الشقاق
٩٠ مقتل فرر
٩٣ الغلو فى المدح ـ التذلل
٩٧ خليج البسفور
١٠٠ أكذوبة ابريل وأكذوبة رمضان
١٠٤ نشيد البلبل
١٠٨ الاستاذ العقاد

صحيفة

١٠٩ آثار أقلامه ـ الراحة
١١٢ الغرور
١١٧ نادى المجول
١٢٠ علم الاحترام
١٢٤ جمجمة الانسان
١٢٧ الصدى ونرجس
١٣٠ قوة الارادة
١٣٧ الشجاعة والعدوى
١٤١ مواضع اللاحة
١٤٤ الحرب
١٥٨ النجاح
١٦٩ الصحائف
١٧٦ الاستاذ المرحوم قاسم بك أمين
١٨٧ الحالة الاقتصادية فى مصر
١٨١ الاستقلال فى المعيشة بل الاستقلال
١٨٤ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا
١٨٧ لماذا لا يوجد فى مصر أغنياء
١٩٠ لماذا لا يوجد فى مصر أغنيا أيضا
١٩٣ الوقف ونتائجه